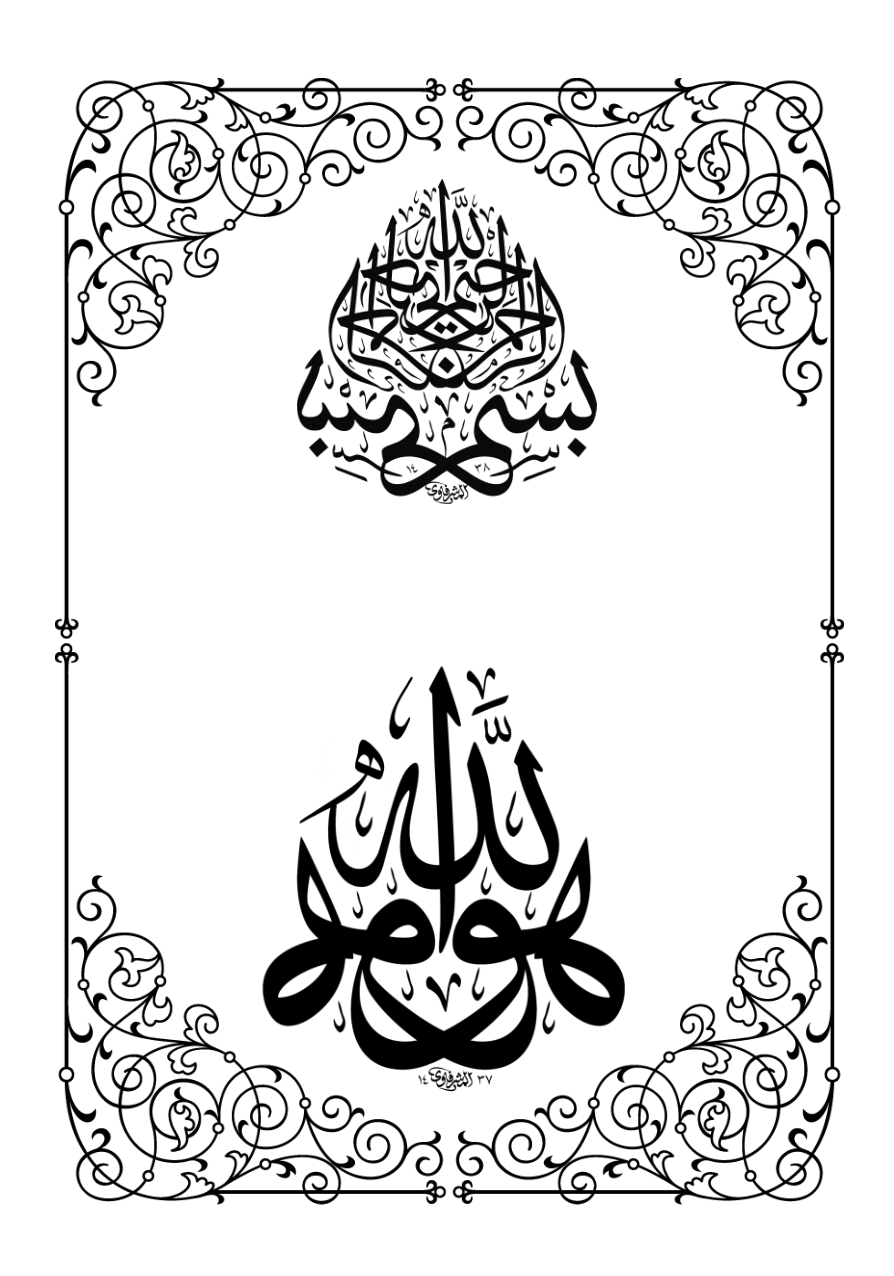

بسم الله الرحمن الرحيم
هو الله



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق وزارة الثقافة العراقية (٦٧٤) لسنة ٢٠٢٢

فياض، حسين – مؤلف.

أصل الدين بين تهافت الملاحدة واتفاق المؤمنين/ تأليف السيد حسين الفياض. – الطبعة الاولى. – كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والبحوث، ٢٠٢٢ / ١٤٤٣ للهجرة.

١٠٨ صفحة ؛ ٢٤ سم. – (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٠٠٧)، (قسم الشؤون الفكرية والثقافية ؛ ٢٩١)، (شعبة الدراسات والبحوث ؛ ٢١٥)

يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ١٠٣–١٠٥).

١. الإلهيات (علم الكلام) ٢. نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٣. الإلحاد والملحدون –– فلسفة أ. العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث –– جهة مصدرة. ب. العنوان

BP166.2 .H33 2022

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات
التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

العراق: كربلاء المقدسة– العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية – هاتف ٣٢٦٤٩٩
E-mail: info@imamhussain-lib.com
www.imamhussain-lib.com



تأليف
السيد حسين الفياض

طبع برعاية

العتبة الحسينية المقدسة



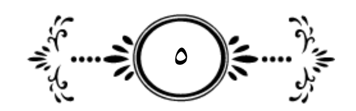
العراق: كربلاء المقدسة – العتبة الحسينية المقدسة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله وسلَّم على خير خلقه محمَّد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

يتبجح الملاحدة بدعوى أصالة الإلحاد وأنَّ الدين صناعة بشريَّة، ويروجون لفرضيات إلحادية حول تفسير الدين يزعمون أنَّها قائمة على أُسس ومناهج علمية رصينة، وهذا الكتاب هو دراسة علمية جادة لمعظم الفرضيّات التي وضعها زعماء الإلحاد حول أصل الدين لتبرير إلحادهم، يكشف وهنها وتهافتها وخواء





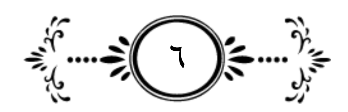
الموقف الإلحادي، كما يثبت اتفاق المؤمنين على عقيدة أصالة الدين باقتضاء الفطرة.

نعمل الآن على تأليف كتاب بعنوان (تهافت الإلحاد) يدرس جذور ظاهرة الإلحاد وأسبابها بصورة تفصيليَّة، ويكشف الأقنعة التي يتستر بها الملاحدة، ويردُّ أهم الشبهات التي يتمسكون بها، ولكن أحببنا أن نعجل للقراء بهذا الكتاب الذي يردُّ على زعم أصالة الإلحاد وكون الدين صناعة بشريَّة.

السيد حسين الفياض

النجف الأشرف

٢٠١٩/٦/١٠

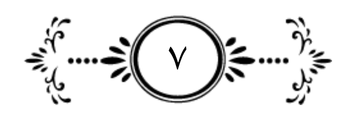




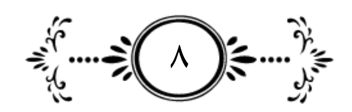
فرضيَّات الملاحدة حول أصل الديـن

١- فرضيَّة الأرواح والأحلام

رائد هذه الفرضيَّة هو الملحد البريطاني الأنثربولوجي إدوارد تايلور (توفي ١٩٠٩م)، حيث قام بصياغة فرضيته في أَصل الدين والمعروفة باسم الأرواحيَّة (Animism) نسبة إلى الأرواح وشرحها في كتابه (المجتمع البدائي)، وقد وصف تايلور فرضيته بأنَّها نظريَّة الحدّ الأدنى في تعريف الدين، مفترضاً أنَّ الدين في كلِّ العالم هو نمط واحد قد تطوَّر من الحالة البسيطة إلى الحالة المعقدة.



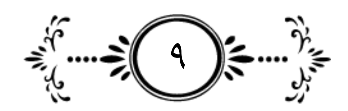
يفترض تايلور أنَّ أقدم شكل للدين يقوم على الإيمان بوجود الأرواح، وهو يفترض أنَّ فكرة وجود الروح قد تكوَّنت لدى الإنسان البدائيِّ من خلال مراقبته لظاهرة الأحلام، ففي الأحلام يرى النائم أقاربه وأصدقاءه وأسلافه الذين قد ماتوا منذ زمن بعيد، كما أنَّه أيضاً يسافر سائحاً من خلال النوم إلى مناطق نائية وجسده راقد في سريره، ومن هنا انبثقت في ذهن السلالة الأُولى من البشر فكرة وجود الروح وثنائيَّة الروح والجسد، وأنَّ الروح عند مفارقتها للجسد تكتسب قدرات وطاقات إضافيَّة وهي تستطيع أنْ تسكن في أيِّ موضوع من موضوعات العالم الطبيعي، وأنَّ الأرواح المتحررة تبقى بشكل من الأشكال متّصلة بعالم الأحياء ولها تأثير فيه، ومن هنا جاءت فكرة الطقوس العباديَّة وتقديم القرابين للأرواح، ثمَّ تطوَّرت الفكرة من عبادة الأرواح الكامنة في الموجودات الطبيعيَّة، أو من عبادة خصوص أرواح الأسلاف إلى



الاعتقاد بالآلهة الغيبيَّة[1]. ونحن نردُّ هذه الفرضيَّة ومشتقاتها التي قال بها سبنسر و فريزر فنقول:

أَوَّلاً: أَوَّل من رفض هذه الفرضيَّة هو دوركايم الذي يعدُّونه مؤسس علم الاجتماع الحديث، حيث نقد هذه الفرضيَّة كثيراً في كتابه (الأشكال الأَوَّليَّة للحياة الدينيَّة) الصادر عام (١٩١٢م)، واعتبرها غير عقلانيَّة ولا ينبغي أنْ تصدر من إنسان عاقل، فالدين أهم وأعمق وأشدُّ رسوخاً من أنْ ينشأ عن أحلام نائم، قال: (لا يجدر أنْ يخطر بالبال أنَّ مجموعات من الأفكار مثل الدين، والتي أدَّت دوراً مهماً للغاية على مرِّ العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كلِّ الأزمنة لأجل الحصول على القوة المطلوبة لبقائها، لا يعقل أنْ تكون مجرد نسيج من الأوهام، نحن نعرف اليوم أنَّ القضاء والأخلاق وحتى التفكير العلمي تولَّدت من الدين، وامتزجت به خلال فترة طويلة

(١): راجع: قاموس أكسفورد للعلوم الاجتماعية، مادة (تايلور، إدوارد).- الموسوعة البريطانية، مادة (الأرواحية، Animism).

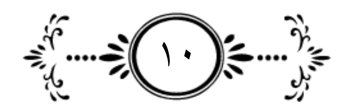




وبقيت متداخلة فيه، كيف يمكن لرؤيا وهميَّة أنْ تشكِّل بطريقة صلدة ولفترة زمنيَّة طويلة فكر ومعرفة البشر؟)[1]، وهذا كلام سليم تماماً، فمن المضحك للثكلى هذا العقل الإلحادي الذي يرى أنَّ أصل الدين هو الأحلام والكوابيس، ولكنْ سنرى مدى عقلانيَّة دوركايم ووفائها بهذا الكلام عند عرضنا لفرضيته الطوطميَّة.

ثانياً: إنَّ هذه الفرضيَّة تدَّعي أنَّ الحالة الأَوَّليَّة للدين هي عبادة أرواح الأجداد أو مطلق الأرواح المزعوم وجودها في الموجودات الطبيعيَّة، ثمَّ تطوَّرت إلى عبادة الله تعالى، ولكنَّ هذه الدعوى يعارضها العديد مثل كارن ارمسترونج التي سنذكر فرضيتها الأُسطوريَّة لاحقاً، حيث تقول: (فقبل البدء بعبادة آلهة عدَّة اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من العالم على الاعتقاد بإله واحد قادر خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد، احتوت كلُّ المعابد

(١): الأشكال الأولية للحياة الدينية، إميل دوركايم، ص٧٠.



القديمة على (إله السماء) حيث وجده الإنثربولوجيون عند القبائل مثل بيجميز الاستراليين والفيوجيانز، كان هذا الإله السبب الأَوَّل لكلِّ الأشياء وحاكم السّماء والأرض)[1]، أي أنَّ عبادة إله واحد هي الأصل ثمَّ حصل التدهور متخذاً أشكالاً متعددة من الضلال.

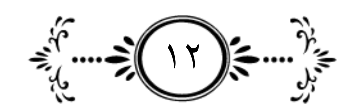
ثالثاً: تدَّعي هذه الفرضيَّة أنَّ السبب في عبادة الأرواح هو الاعتقاد بامتلاكها لقدرات فائقة عند انفصالها عن الجسد بالنوم أو الموت، وقد جاء هذا الاعتقاد ممَّا يراه النائم في أحلامه من انطلاق الأرواح في آفاق واسعة وقيامها بأفعال خارقة. نقول: إنَّ الإنسان النائم كما يرى روحه في أحلامه وهي تنطلق في آفاق واسعة وتقوم بأفعال خارقة، كذلك يراها وهي تتردى من شاهق أو يأكلها السبع مثلاً، فلماذا رجح السيد تايلور الحالة الإيجابيَّة للروح وجعلها موجبة لعبادة الأرواح دون الحالة السلبيَّة المبرزة لضعف الروح؟

(١): تاريخ الأُسطورة، كارن ارمسترونج، ص٢٣.



إنَّه ترجيح بلا مرجح، أَم يريد القول إنَّ السلالة الأُولى من البشر كانت أحلامهم مقتصرةً على رؤية الحالة الإيجابية للروح ؟ لا يمكنه إثبات ذلك ولا حتى في أحلامه.

رابعاً: لم يذكر تايلور ومن قال بالفرضيَّة الأرواحية مثل فريزر وسبنسر سبباً للتطور المزعوم بتحوّل البشر من حالة تقديس روح الأسلاف أو الخوف من أرواح الموتى إلى عبادة أرواح الموتى، فالتقديس والخوف شيء آخر غير التأليه والعبادة، كما لم يذكروا سبباً للتحوّل من عبادة أرواح الأسلاف أو مطلق الأرواح الكامنة في الموجودات الطبيعيَّة إلى حالة عبادة الله خالق الموتى والطبيعة ولا كيف حصل هذا التطور، لم يذكروا دليلاً لأنَّ فرضيتهم باطلة ويريدون ترقيع فجواتها بالطفرات، إنَّها طفرات دينيَّة على غرار الطفرات البيولوجيَّة التي رقع بها دارون فرضيّته الواهية في تطور الأنواع الحيَّة من بعضها البعض.





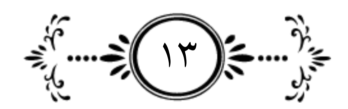
٢- فرضية الجهل

أبرز المنظرين لهذه الفرضيَّة هو الملحد الفرنسي اوغست كونت[1] مؤسس الفلسفة الوضعيَّة (توفي ١٨٥٧م)، حيث زعم في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعيَّة) أنَّه قد اكتشف قانون تطور العقل البشري، فقال: (من خلال دراسة التطور الكلِّي للذكاء البشريِّ في مختلف مجالات نشاطه، من أبسط تطوره إلى يومنا هذا، أعتقد أَنَّني اكتشفت قانونًا أساسيًا كبيرًا يخضع له لضرورة ثابتة، والذي يبدو لي راسخاً،

إمَّا على البراهين العقلانيَّة التي توفرها معرفة منظمتنا، أو على التحقيقات التاريخيَّة الناتجة عن دراسة متأنية للماضي، يتكون هذا القانون من حقيقة أنَّ كلَّ من مفاهيمنا الرئيسيَّة، كلَّ فرع من فروعنا،

---

(١): راجع: الموسوعة الفلسفية المختصرة، إعداد جوناثان ري، مادة (كونت)، ص٢٦٦
معجم الفلاسفة، اعداد جورج طرابيشي، مادة (كونت)، ص٥٤٠.

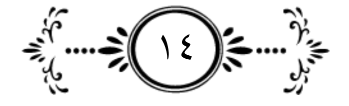




يمرُّ عبر ثلاث حالات نظريَّة مختلفة هي: الحالة اللاهوتيَّة أو الوهميَّة، الحالة الميتافيزيقيَّة أو المجردة؛ الحالة العلميَّة أو الوضعيَّة)(1).

وخلاصة هذا القانون أنَّه يقسم تاريخ المعرفة إلى ثلاث مراحل متتالية: المرحلة الدينيَّة، ثمَّ المرحلة الفلسفيَّة، ثمَّ المرحلة العلميَّة، ففي طفولة العقل البشري حيث كان البشر يجهلون حقائق الطبيعة وتفسير ظواهرها فإنَّهم نسبوها إلى موجودات خارقة ما وراء الطبيعة أو أرواح كامنة في ذات الموجودات الطبيعيَّة، ثمَّ تطوَّر العقل البشريُّ فراح يبحث عن الإجابات بالتأملات العقليَّة الفلسفيَّة المجرَّدة، ثمَّ تطوَّر واستطاع بالعلوم الحسيَّة أنْ يكتشف قوانين الطبيعة وأسباب الظواهر الطبيعيَّة، وعلى هذا فإنَّ الدين حسب فرضيَّة كونت هو وليد الجهل ويشكِّل مرحلة بدائيَّة للمجتمع البشريِّ قد تمَّ تجاوزها بتطور العلوم، وهذا القانون

(1): دروس في الفلسفة الوضعية، اوغست كونت، الدرس الأوَّل، ج1 ص1.



حسب زعمه ينطبق على الفرد كما ينطبق على تاريخ المجتمع، فالفرد في مرحلة الطفولة لمّا كان يجهل أسباب الظواهر فإنَّه ينسبها إلى قوى غيبيَّة غير ماديَّة، ثمَّ في شبابه يدرك رجوعها لقوانين المادة.

ونحن نردُّ هذه الفرضيَّة ومشتقاتها فنقول:

أوَّلاً: إنَّ هذه الفرضيَّة تعترف بالأصالة التاريخيَّة والروحيَّة للدين والتدين، وإنْ كانت تردُّه إلى الجهل بأسباب ظواهر الطبيعة، وهذا يثبت بطلان دعوى أصالة الإلحاد.

ثانياً: هذه الفرضيَّة تعبِّر عن الدين كمرحلة تاريخيَّة متقدِّمة على المرحلة الفلسفيَّة ولكنَّ الواقع التاريخيَّ يثبت عكس ذلك، فمثلاً بعد ازدهار المدارس الفلسفيَّة في أوروبا قبل الميلاد جاءت القرون الوسطى المسيحيَّة التي كانت دينيَّة بامتياز.

ثالثاً: إذا كانت السلالة الأُولى من البشر - حسب زعم هذه الفرضيَّة - قد ابتكرت وجود الله كتفسير للظواهر الطبيعيَّة،

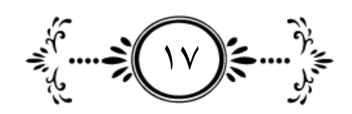


فكذلك السلالة المتأخِّرة من البشر قد اكتشفت القانون الطبيعيَّ لتفسير الظواهر الطبيعيَّة، فما الذي جعل السلالة الأُولى تؤلِّه وتعبد ابتكارها بينما السلالة المتأخِّرة لا تؤلِّه وتعبد اكتشافها؟ بعبارة أُخرى: إنَّ وجود الله مادام هو مجرد تفسير للظواهر الطبيعيَّة بحسب منطق السلالة الأُولى فلماذا يعبدونه؟ هذا يعني أنَّ التأليه والعبوديَّة هي لسبب آخر غير معرفة أسباب الظواهر الطبيعيَّة، وأنَّ وجود الله ليس ابتكاراً لتفسير تلك الظواهر.

رابعاً: هذه الفرضيَّة تزعم أنَّ العلم قد أحال الدين على التقاعد، فلم تعد البشريَّة بحاجة إليه بعد تصدي العلم للإجابة عن الأسئلة الكبرى، وهذه أُكذوبة كبيرة ومبالغة في تقديس العلم وتضليل عقول البسطاء، فميدان العلوم الطبيعيَّة منحصر في البحث عن كيفيَّة حدوث الظواهر الطبيعيَّة والعلاقات بين الموجودات كالخسوف والكسوف والزلازل وحركات الأجسام وغيرها،

وليس من شأنه البحث عن العلل الأُولى للموجودات، وقد اتفق جمهور علماء الطبيعة اليوم على حصر أبحاثهم ونطاق عملهم في معرفة كيفيَّة حدوث الظواهر وأسبابها القريبة وترك البحث عمَّا وراء ذلك من العلل البعيدة، وهذا موقف علميٌّ رشيد يدلُّ على التواضع العلميِّ ووفاء العالم لعلمه، فما يتشدق به أنصار فرضيَّة الجهل من أنَّ العلم قد أحال الدين على التقاعد ما هو إلَّا تبجح من بعض من الملاحدة يكشف عن غرورهم وجهلهم بحقائق التاريخ والإنسانيَّة والعلم، كتبجحهم بفرضيَّة دارون وفرضيَّة الانفجار الكبير على الرغم من عدم ثبوتهما في الأوساط العلميَّة.

خامساً: هذه الفرضيَّة تزعم أنَّ الإنسان عندما يكون عالماً بقوانين الطبيعة فإنَّه سيكون ملحداً، وهذا الزعم ينقضه الواقع، فالكثير من علماء الطبيعة هم مؤمنون، ونحن لا نريد أن ندخل في جدل ذكر أسماء العلماء المؤمنين بالله، حيث درج سفهاء الملاحدة



على إنكار إيمان كلِّ عالم، ولكنْ حسبنا الإرشاد إلى كتاب (الله يتجلَّى في عصر العلم) الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها ثلاثون من العلماء الأمريكيين في تخصصات علميَّة مختلفة، وفيه يثبت كلُّ عالم منهم وجود الله من وحي تخصصه دحضاً لافتراءات الملاحدة على العلماء وبرهاناً على أنَّ معرفة قوانين الطبيعة لا تزيد المؤمن إلَّا إيماناً بعظمة الخالق.

سادساً: إنَّ أتباع هذه الفرضيَّة يقرون بمبدأ العِليَّة وأنَّ قضيَّة (لكلِّ معلول علَّة ولكلِّ حادث محدِث ولكلِّ أثر مؤثر)، هي قضيَّة بديهيَّة راسخة في تخوم الوجود البشريِّ، ولا علاقة لها بالنضج العقليِّ ولا تطوّر المعارف البشريَّة، ولكنَّهم يزعمون أنَّ أسلافنا من البشر قد أخطأوا الاستدلال بالمعلول على العلَّة فنسبوا الحوادث الكونيَّة والظواهر الطبيعيَّة إلى غير علَّتها الحقيقيَّة وهي قوانين الطبيعة!! وهكذا يريد الأُستاذ كونت وأَتباعه إخراس الألسن



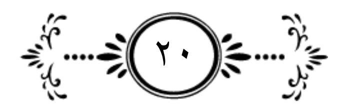
ولجم العقول مدعياً أنَّه قد أتى بالذئب من ذيله وأنزل الدين من علياء عرشه، لكن هيهات، إنَّما أتى بفضيحة الملاحدة وأزرى بالعلم ولم يكن مستولياً إلَّا على أضعف السفهاء، أمَّا العقول الجامحة والألسن الصادحة فتظل تفكِّر وتسأل: ومن قنن قوانين الطبيعة؟ يقولون: نحن اكتشفنا قوانين الطبيعة عند معرفتنا لخواص العناصر والمركبات الطبيعية، قلنا: ومن الذي جعل لكلِّ عنصر من عناصر المادة ولكلِّ مركب من مركبات المادة خواصَّ كيميائيَّة وفيزيائيَّة خاصة به يمتاز بها عن غيره؟ يقولون: إنَّ ذلك يرجع إلى الظروف التي تشكَّلت بها عناصر المادة والمركبات، قلنا: ومن الذي أوجد ورتب هذه الظروف بحيث انتجت في النهاية تلك القوانين الطبيعيَّة الكليَّة الثابتة المتحكمة في الحوادث والظواهر والموجودات؟ يقولون: لم يوجدها أحد ولم يرتبها أحد، بل هي حصلت هكذا صدفة بصورة عشوائيَّة!!

قلنا: إذا كانت السلالة البشريَّة الأُولى التي تزعمونها همجيَّة وحشيَّة بربريَّة جاهلة كانت تعتمد التفكير المنطقيَّ المنظم عملاً بمبدأ العلّيَّة وأنَّه لا بُدَّ لكلِّ معلول من علَّة، بينما أنتم انتكستم إلى الصدفة والعشوائيَّة فمن أَولى منكم بالعلميَّة والتفكير السليم؟ ما أتفه العلم حينما يتشدق به الملاحدة وما أجمله حينما يزيد العالم خشوعاً (فقد يستطيع الإنسان أنْ يفسِّر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التي تحكمه، ولكنَّ الإنسان عاجز عن أنْ يسنَّ تلك القوانين، فهي من صنع الله وحده، ولا يفعل الإنسان أكثر من أنَّه يكتشفها ثمَّ يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون، وكلُّ قانون يكتشفه الإنسان يزيده قرباً من الله)[1].

سابعاً: إنَّ التفكير الدينيَّ والفلسفيَّ والعلميَّ ليس مراحل تاريخيَّة للفكر البشريِّ متمايزة زمنياً عن بعضها البعض، كما تزعم

---

(١): الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، ص١٠٨.



هذه الفرضيَّة، بل هي أنماط للتفكير ترافق الوجود النوعيَّ والفرديَّ للإنسان، فلا ينفي بعضها بعضاً، ففي عصر واحد قد توجد هذه الأنماط الثلاثة للتفكير متزامنة كما فيما سمِّي بالعصر العباسي حيث وجد علماء الدين مع الفلاسفة وعلماء الطبيعة، وقد يشيع أحد أنماط التفكير في فترةٍ ما، دون أنْ يلغي أنماط التفكير الأُخرى، كشياع التفكير العلميِّ فيما سمِّي بعصر الثورة الصناعيَّة في أوروبا وهو العصر الذي طرح فيه كونت فرضيته الإلحاديَّة، علماً أنَّ سبب تعظيم العلم وشياع نمط التفكير الوضعيِّ في القرن التاسع عشر ليس راجعاً للتطوّر العلميِّ أو تطوّر العقل البشريِّ، بل لتوجهات اقتصاديَّة وسياسيَّة ولأجل الخصومة مع الكنيسة وتعاليمها، فقد اتخذ الجشع الرأسماليُّ العلمانيُّ من العلم الوضعيِّ وسيلة لتضخيم رأس المال على حساب الدين والأخلاق.

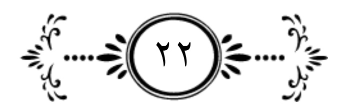




ثامناً: لا دليل عند كونت ومن يتشدَّق بهذه الفرضيَّة سوى الشواهد التاريخيَّة التي ذكرت ابتداع بعض الأُمم آلهة متصرفة بالطبيعة، كآلهة الشمس والقمر والرياح والخصب، ونحن نقرُّ بضلال البشريَّة في بعض المراحل التاريخية، ولكنَّ ذلك لا يعود إلى الجهل بقوانين الطبيعة، بل إلى الضلال عن الله الواحد الأحد الخالق الحقيقيِّ لكلِّ الوجود والمدبِّر الأصلي لجميع شؤون الكون ومطبع الطبيعة ومقنن قوانينها، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]، فما ذكره كونت وأتباعه مجرد تأويل لحالة ضلاليَّة عارضة ينافيه الواقع التاريخيُّ والمعاصر.

تاسعاً: لا نجد العلم الوضعيَّ في يومنا هذا قد تمكن من الإجابة الحاسمة عن الأسئلة الكبرى حول أصل الوجود ومصيره،

(١): سورة فصلت، الآية: ٣٧.



كما لا نجد انقطاع البشريَّة عن السؤال عمَّا وراء ظاهر الطبيعة، وعن معنى الحياة وهدفيتها مهما بلغ رقيها في العلم الوضعيّ، وهذا يثبت أصالة هذه الأسئلة وعمقها في الوجدان البشريِّ، فهي أسئلة ترافق الوجود البشريَّ بجميع مراحل التاريخ، ولا تختص بمرحلة معينة، كما ترافق تفكير الفرد في جميع مراحل حياته بقطع النظر عن مستواه الثقافيِّ ونضجه العقليِّ، بدليل أنَّ اوغست كونت نفسه لولا تفكيره في هذه المسائل لما وضع فرضيته هذه وإلَّا فلا نحتمل أنَّه استيقظ صباحاً فوجد الفرضيَّة تحت الوسادة مثلاً.

عاشراً: إنَّ الحاجة للدين لا تقتصر على الحاجة إلى معرفة الإجابة عن الأسئلة المعرفيَّة الكبرى، فهذه المعرفة هي من توابع الحاجة الفطريَّة للدين وهي الحاجة إلى الكمال الروحي والتعلق بالكمال المطلق الذي لا يشوبه النقص، فإن ادَّعى كونت وأتباعه وجود صراع بين العلم والدين وأنَّ العلم قد حلَّ بديلاً عن الدين





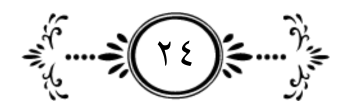
في جانبه المعرفيِّ وهي دعوى باطلة، فإنَّه يستحيل أنْ يحلَّ بديلاً عن الدين في جانبه الروحي، بدليل أنَّ أوغست كونت نفسه قد ابتدع في آخر حياته ديناً وجعل له ربّاً وطقوساً ونصب نفسه كاهناً، فهذا برهان عبثيَّة اوغست كونت التي سخر منها حتى الملاحدة أمثال دوركايم كما سنذكر لاحقاً.

٣- فرضيَّة الفقر

أبرز المنظرين لهذه الفرضيَّة هو الملحد الألماني من أصل يهوديٍّ كارل ماركس (توفي ١٨٨٣م) مؤسس الشيوعيَّة الدياليكتيكيَّة(١)، وتزعم هذه الفرضيَّة أنَّ الدين هو وسيلة اخترعها الأقوياء والأثرياء لتخدير الفقراء وإيهامهم بسعادة زائفة لمنعهم عن التمرد والمطالبة بحقوقهم، كما أنَّ التدين من جهة الفقراء هو وعي زائف وانعكاس لحالة الفقر حين يعجز الفقير عن تحقيق السعادة في حياته الواقعيَّة،

---

(١): راجع معجم الفلاسفة، مادة (ماركس)، ص٦١٨.



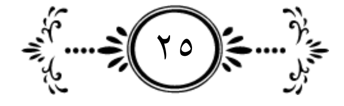


فيوهم نفسه بتحقيقها في حياة أُخرى، يقول ماركس: (إنَّ التعاسة الدينيَّة هي في شطر منها، تعبير عن التعاسة الواقعيَّة، وهي من جهة أُخرى احتجاج على التعاسة الواقعيَّة. الدين زفرة الإنسان المسحوق، روح عالم لا قلب له، كما أنَّه روح الظروف الاجتماعيَّة التي طرد منها الروح، إنَّه أفيون الشعب، إنَّ إلغاء الدين من حيث هو سعادة وهميَّة للشعب، هو ما يطلبه صنع سعادته الفعليَّة، أنْ تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو أنْ تطلب التخلي عن وضع بحاجة إلى وهم، فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا)[١]، ويقول في البيان التأسيسيِّ للحزب الشيوعي الذي كتبه مع شريكه فردريك إنجلز: (القوانين والأخلاق والدين هي والأحكام البرجوازيَّة المغرضة الكثيرة سواسية بالنسبة إليه، تتستر وراءها مصالح برجوازيَّة كثيرة)[٢].

---

(١): نقد فلسفة الحق عند هيجل، ص١.

(٢): بيان الحزب الشيوعي، ماركس وإنجلز، الفصل الأَوَّل، ص٣٦.





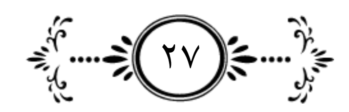
ونحن نردُّ هذه الفرضيَّة ومشتقاتها فنقول:

أَوَّلاً: إنَّ هذه الفرضيَّة بحسب التنظير الماركسي الشيوعي قائمة على افتراض أنَّ المجتمع البشري الأَوَّل لم يكن مشتملاً على سلطة حاكمة ولا على أنظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الأفراد، وأنَّ كلَّ خيرات الأرض كانت مشاعة أي مبذولة للجميع، وكان ناتج العمل يقسم بين جميع الأفراد بالتساوي، فكان - حسب زعمهم - مجتمعاً مثالياً لا وجود للصراعات فيه أبداً، حتى ظهرت فكرة الملكيَّة الخاصة باستحواذ البعض على وسائل الإنتاج كالأرض وأدوات العمل، فكانت الملكيَّة الخاصة هي أصل جميع الصراعات والويلات والشرور التي حصلت بعد ذلك، وبسبب وجود الملكيَّة الخاصة وجد الانقسام الطبقي: طبقة الأثرياء وطبقة الفقراء، وبسبب الفقر والصراع الطبقي وجد الدين والتدين، فقبل ظهور الملكيَّة الخاصة لا يوجد دين ولا تديّن لعدم وجود الفقر والصراع الطبقي،





وهذا يثبت أصالة الإلحاد بحسب هذه الفرضيَّة، ونحن نقول: إنَّ هذا المجتمع البدائيَّ الشيوعيَّ الأَوَّل لا وجود له أصلاً إلَّا في خيال ماركس ومن سبقه من الحالمين كجان جاك روسو فهو محض افتراض لا إثبات حقيقياً له، ذلك لأنَّ أقصى ما يثبته التاريخ المكتوب والمحفور إنَّما هو وجود سلالة بشريَّة في مرحلة أقدم كانت تمارس الصيد والرعي والزراعة بشكل جماعيٍّ، ولكنَّ مجرد هذا المقدار لا يثبت المدعيات الشيوعيَّة الكبرى بأنَّه مجتمع لم يكن مشتملاً على سلطة حاكمة ولا على أنظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الأفراد ولا على ضوابط أخلاقيَّة ولا على دين وتديُّن، كما لا يثبت عدم وجود الملكيَّة الخاصة، ولا يثبت كونه مجتمعاً مثالياً لا وجود للصراعات فيه مطلقاً، فإنَّه إلى يومنا هذا تمارس الناس الزراعة والصيد والرعي بشكلٍ جماعيٍّ ولا ملازمة بين هذه الممارسة وبين انعدام الدين والتدين والأخلاق والأنظمة والملكيَّة الخاصة والصراعات.



لا يوجد شاهد لماركس وأتباعه على وجود المجتمع الشيوعيِّ البدائيِّ المفترض سوى اكتشاف حياة بعض القبائل المعاصرة من السكان الأصليين لأستراليا والأمريكيتين والتي زعموا وجود المشاعة الجنسيَّة والاقتصاديَّة فيها، فطاروا بذلك فرحاً وزعموا أنَّهم قد عثروا على الإثبات التاريخي لشيوعيتهم المفترضة بدعوى أنَّ هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشري، وأنَّها مازالت تعيش في مرحلة ما قبل التاريخ، أي مرحلة ما قبل ظهور الملكيَّة الخاصة حسب زعمهم، ومع كوننا لا نسلِّم بهذه الدعوى أي دعوى أنَّ حالة هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشريِّ ولا مثبت عندهم لهذه الدعوى، ولكنْ مع ذلك فإنَّ اكتشافهم هذا ينقض دعواهم في أنَّ الدين والتدين إنَّما ظهر بظهور المدنيَّة والملكيَّة الخاصة، فهذا الملحد إنجلز زميل ماركس وشريكه في كتاباته وتنظيراته الشيوعيَّة قد بسط الكلام في عرض حياة تلك



القبائل المعاصرة في كتابه (أصل العائلة والملكيَّة الخاصة والدولة)، بغية إثبات الوجود المفترض للمجتمع الشيوعيِّ البدائيِّ، هو نفسه يقرُّ بوجود الدين والتديُّن عند تلك القبائل فيقول: (لكلِّ قبيلة أفكارها الدينيَّة وطقوسها وقد أصبح الهنود الأمريكيون شعباً متديّناً بناءً على الموضة التي سادت الشعوب في عصر البربريَّة، ولم يقم أحد بدراسة أفكارهم الدينيَّة دراسة دقيقة إلى الآن، وكلُّ معلوماتنا عن هذه الأفكار هي إيمانهم بالأرواح من كلِّ نوع، ولم تكن تماثيل الآلهة أو الأصنام قد عرفت عندهم بعد، إذ كانوا لا يزالون في المرحلة الدنيا للبربريَّة، وكانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، وقد كان لكلِّ قبيلة احتفالاتها الدينيَّة الخاصة بها)[1].

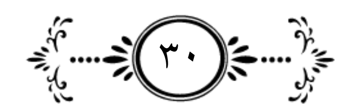
هذه حجة من لسانهم تثبت أصالة الدين ووجوده عند أقدم السلالات البشريَّة قبل أنْ يغرق الوادي بدموع الفقراء الذين

(١): أصل العائلة والملكيَّة الخاصة والدولة، فردريك إنجلز، الفصل الثالث، ص٩١.



يتباكى ماركس عليهم، وهذا برهان وهميَّة الإلحاد وبرهان تهافت الملاحدة، فدعوى أنَّ الدين والتديُّن وليد الفقر والملكيَّة الخاصة والصراع الطبقي هي دعوى باطلة جزماً؛ لقيامها على افتراضٍ خياليٍّ، والعجيب قيام فلسفة تاريخيَّة معرفيَّة اقتصاديَّة اجتماعيَّة سياسيَّة على هذا الافتراض الخياليِّ، والأعجب هو قيام امبراطوريَّة إلحاديَّة على هذا الخيال الماركسيِّ هي امبراطوريَّة الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الشيوعيَّة.

ثانياً: إنَّ هذه الفرضيَّة تجعل الدين والتديَّن بناءً فوقياً وإفرازاً لحالة الصراع الطبقي الراجع إلى وجود الملكيَّة الخاصة والبناء التحتي للنموذج الاقتصاديِّ، وعليه فعند إلغاء الملكيَّة الخاصة وزوال ذلك النموذج الاقتصاديِّ يزول الدين تلقائياً، يقول الملحد الماركسي جورج بوليتزر مؤسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعيِّ الفرنسي: (يتولَّد البناء الفوقيُّ عن الأساس ويزول معه



ويكون مصيره مصيره، إذ تتولَّد الأفكار السائدة في مجتمع معين من نموذج ملكيَّة وسائل الإنتاج التي تسيطر فيه، ليس البناء الفوقي إذن مجرد تراكم أفكار سياسيَّة، تشريعيَّة، فلسفيَّة، دينيَّة، إلخ... ذلك لأنَّ لهذه الأفكار رابطاً داخلياً، فهي تعكس الأساس نفسه)[1]، ولكنَّ واقع التطبيق الماركسيِّ يكذِّب ذلك، فقد قام الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الاشتراكيَّة الماركسيَّة بإلغاء الملكيَّة الخاصة وإقرار النظام الاشتراكيِّ وتطبيقه، ولم يزل الدين ولا التديُّن تلقائياً، بل إنَّهم لم يتمكنوا من اجتثاث الدين والتديُّن حتى باستخدام أساليب القمع بغلق المساجد والكنائس ومنع الكتب الدينيَّة والتدريس والإرشاد الديني واعتقال رجال الدين وقتلهم، ولم يتمكنوا حتى بتغيير المناهج الدراسيَّة ودورات التثقيف الشيوعيِّ، لقد زالوا ولم يزل الدين والتديُّن وكفى بذلك برهاناً على أصالة الدين والتديُّن وعلى تهافت الماركسيَّة ووهميَّة الإلحاد.

---

(١): أُصول الفلسفة الماركسيَّة، جورج بوليتزر، ج٢ ص٧٥.





ثالثاً: إنْ كان الدين هو اختراع الأثرياء لاستغلال الفقراء لزم أنْ يكون كلُّ الأثرياء ملاحدة جشعين، وهذا اللازم باطل جزماً لشهادة الواقع وجود فئة من الأغنياء الصالحين المتمسكين بالدين والمضحين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الدين ونصرة المظلومين وانعاش الفقراء، وإنْ كان التديُّن هو تعبير الفقراء عن بؤسهم الاقتصادي لزم أنْ يكون كلُّ الفقراء متدينين وهذا اللازم باطل جزماً كذلك؛ لشهادة الواقع وجود فئة من الفقراء لا تؤمن بدين، فدعوى أنَّ الدين خدعة الأثرياء وزفرة الفقراء كما يدَّعي ماركس وأتباعه هي دعوى يكذبها الواقع، بل إنَّ حياة ماركس نفسه تكذب قوله فهو نشأ في عائلة ثرية رأسماليَّة وكان متديناً ثمَّ لمَّا عاش حالة الفقر صار ملحداً، وكان اللازم حسب أُطروحته أنْ يكون العكس، أي يكون ملحداً بداية حياته لأنَّه غني ومؤمناً آخر حياته لأنَّه فقير، هذا برهان تهافت الملاحدة.



رابعاً: إنَّ تاريخ الأديان الإلهية يثبت أنَّ الدين هو ثورة الأنبياء والصالحين على الطغاة الفاسدين المستكبرين وعلى كلِّ مظاهر الظلم الاجتماعي نصرة للفقراء والمظلومين، فهذا النبيُّ موسى عليه السَّلام قد نشأ في قصر فرعون الذي كان يدَّعي الربوبيَّة وكان جباراً يستعبد الناس، ولكنَّ النبيَّ موسى عليه السَّلام كان رافضاً لربوبيَّة فرعون وعمله ورافضاً لحياة القصور ومحباً ونصيراً للمظلومين، وعندما أمره الله بقيادة الدعوة الإلهيَّة وقف في وجه فرعون مطالباً بتحقيق العدالة الاجتماعيَّة ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١)، ولم يرضخ للتهديدات ولا للإغراءات الفرعونيَّة، وعندما خرج ببني إسرائيل من مصر وأغرق الله فرعون وجنوده في البحر لم يعد النبيُّ موسى

---

(١): سورة الأعراف، الآيتان: ١٠٤ ـ ١٠٥.





عليه السَّلام إلى مصر ليستولي على ملك فرعون، ثمَّ بعد ذلك ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]، ولم يأتِ ليبرر للطغاة الرومان والمستكبرين من بني إسرائيل ظلمهم، فقد نشأ فقيراً وعاش فقيراً بين الفقراء في فلسطين حين كانت مستعمرة للرومان، ولمَّا كان المستكبرون من بني إسرائيل يأكلون أموال الناس بالباطل ويخالفون تعاليم الله، أمره الله أنْ يجهر بالحقِّ نصرة للمستضعفين وهداية للضالين، فلقي في سبيل ذلك هو وأنصاره شتى ألوان العذاب، وأراد المستكبرون قتله فجعلهم الله الأذلين، ثمَّ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2]، وهو نبيّنا محمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله الذي نشأ في مكَّة ورغم كونه من أسياد قبائل العرب إلَّا أنَّه عاش عيشة الفقراء رافضاً لجميع

(١): سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

(٢): سورة التوبة، الآية: ١٢٨.



مظاهر الطغيان والاستكبار والعادات الجاهليَّة وعبادة الأوثان، ولمَّا أمره الله أنْ يصدع بالرسالة الإلهيَّة لنشر دعوة التوحيد وتتميم مكارم الأخلاق وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة كان الفقراء والعبيد أسرع من استجاب لدعوته وكان المترفون أسرع من جدَّ في تكذيبه ومحاربته، ولمَّا جاء نصر الله والفتح أقام دولة العدل الإلهي.

وهذا خليفته بالحقِّ أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السَّلام وهو حاكم الدولة الإسلاميَّة الذي عرك الدنيا ومرغ أنفها بالتراب قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، وكانت حياته عبارة عن ثورة مستمرة على الطغيان والترف والفساد والاستكبار قبل السُّلطة وبعد السُّلطة، وهو الذي يقسم فيقول: **«فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا أدّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أنْ**





يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة ولعلَّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى»[1]، فرحمك الله يا أبا الحسن صدقت وأوفيت بما عاهدت الله عليه وفزت وربِّ الكعبة.

وهذا الإمام جعفر الصادق عليه السَّلام يشدد المنع على شيعته من الدخول في أعمال سلاطين الجور وإعانتهم في ظلمهم ولا بمقدار مَدَّة قلم، فعن ابن أبي يعفور قال:

(كنت عند أبي عبد الله عليه السَّلام إذ دخل عليه رجل من أصحابنا، فقال له: جعلت فداك، إنَّه ربما أصاب الرجل منَّا الضيق أو الشدَّة فيدعى إلى البناء يبنيه،أو النهر يكريه،أو المسناة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبد الله عليه السَّلام: «**ما أحب أنِّي عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاءً، وإنَّ لي ما بين لابتيها، لا ولا**

(١): نهج البلاغة، جمع السيد الشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده، ج٣ ص٧١.



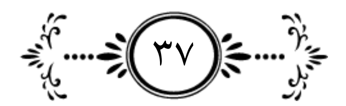


مَدَّة بقلم، إنَّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد»[1].

وهذا الإمام موسى الكاظم عليه السَّلام يعاتب صاحبه المخلص عتاباً مرّاً وينذره إنذاراً شديداً لأَنَّه قام بتأجير جماله في خدمة سلطان بني العباس الجائر هارون السفيه، فعن صفوان بن مهران الجمال قال: (دخلت على أبي الحسن الأوَّل عليه السَّلام فقال لي: «يا صفوان، كلُّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً»، قلت: جعلت فداك أيُّ شيء؟ قال: **«إكراؤك جمالك من هذا الرجل» ـ يعني هارون ـ قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو، ولكنِّي أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكَّة ـ، ولا أتولاه بنفسي، ولكنِّي أَبعث معه غلماني، فقال لي: «يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟»، قلت: نعم، جعلت فداك، قال: فقال لي: «أتحب**

---

(١): وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٧ ص١٧٩، باب تحريم معونة الظالمين، الحديث رقم ٦.





بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟»، قلت: نعم، قال: «**من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار**»، قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها)(١).

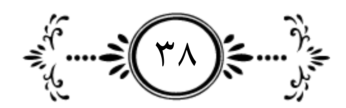
فأين أفيون الشعوب أيُّها الماركسيون؟ إنَّه في أدمغتكم التي أسكرها خمر الإلحاد والرذيلة، إنَّه في أُطروحاتكم الزائفة التي خَدعتم بها بعض السفهاء، إنَّه في بعض الأديان الزائفة ورجال الدين المزيفين من وعاظ السلاطين، فاعرفوا الحقَّ تعرفوا أهله.

٤- فرضيَّة الخوف

أبرز من تشبث بهذه الفرضيَّة ليخدع بها نفسه والآخرين هو الملحد البريطاني برتراند رسل (توفي ١٩٧٠ م)، قال في كتابه (لماذا لست مسيحياً؟): (يقوم الدين برأيي بصورة أساسيَّة وأَوَّلية على الخوف، إنَّه جزئياً الخوف من المجهول، وجزئياً الرغبة في أنْ تشعر

---

(١): المصدر السابق، ج١٧ ص١٨٢، باب تحريم معونة الظالمين، الحديث رقم١٧.



بأنَّ لديك أخاً أكبر سيقف إلى جانبك في كلِّ ما تواجهه من مشاكل ونزاعات، إنَّ الخوف هو أساس الأمر كلِّه، الخوف من كلِّ ما هو غامض، الخوف من الهزيمة، الخوف من الموت... فالعلم يستطيع أنْ يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة، إنَّ العلم يستطيع أنْ يعلِّمنا، وأحسب أنَّ قلوبنا أيضاً تستطيع أنْ تتعلم أنْ لا تجري وراء مدافِع خياليٍّ، وألَّا نصنع لأنفسنا حلفاء في السماء، بل نبذل قصارى جهودنا على الأرض لكي نجعل منها مكاناً مناسباً لحياتنا بدلاً من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلِّها على صنعه)(1).

وخلاصة تقرير هذه الفرضيَّة أنَّها تدَّعي أنَّ الإنسان في السلالة الأُولى وجد نفسه ضعيفاً محاطاً بالأخطار المهددة لحياته من

(1): لماذا لست مسيحياً؟ برتراند رسل، ص٣٤.





كلِّ جهة، مهدد من الطبيعة بسبب وقوع الكوارث الطبيعية كالزلازل والصواعق والأعاصير والبراكين والطوفان، ومهدد من الحيوانات المفترسة التي تفوقه في أسلحتها الذاتيَّة، ومهدد من أخيه الإنسان الذي يعتدي عليه، ومهدد من نفسه ونوازعه الشريرة مع إدراكه لمصيره الحتمي بالموت، كلُّ هذا جعله يعتقد بوجود أرواح في الطبيعة ذات وعي وإرادة وقوَّة، وأنَّ ما يقع من الكوارث الطبيعيَّة والظواهر المخيفة إنَّما هو بسبب غضب الطبيعة، فراح يقدم الهدايا والقرابين ويقيم طقوس الخضوع لأجل إرضائها، ومن ناحية ثانية يطلب منها العون على مواجهة أعدائه من الحيوان والإنسان، ومن ناحية ثالثة يضمن السعادة بعد الموت فلا يخاف من المصير المجهول.



ونحن نردُّ هذه الفرضيَّة ومشتقاتها فنقول:

أَوَّلاً: تشترك فرضيَّة الخوف مع فرضيَّة الجهل التي ذكرناها سابقاً في إرجاع الاعتقاد بوجود روح في الطبيعة أو آلهة مستقلة ما وراء الطبيعة إلى الجهل بقوانين الطبيعة، ولكنَّ الفرق بينهما أنَّ فرضيَّة الجهل ركَّزت على العامل العقليِّ وهو الاستناد إلى مبدأ العلّيَّة، أمَّا فرضيَّة الخوف فركزت على العامل النفسيِّ وهو الخوف من جبروت الطبيعة، فالإنسان حسب زعم فرضيَّة الجهل لم يكن خائفاً وإنَّما أخطأ في الاستدلال بالمعلول على العلَّة الحقيقيَّة وهي قوانين الطبيعة، وهو حسب زعم فرضيَّة الخوف جعله الخوف يتوهم وجود قوَّة حيَّة مدركة واعية متحكمة بالطبيعة؛ ولذلك فإنَّ الردود التي دحضنا بها فرضيَّة الجهل تدحض فرضيَّة الخوف ولا حاجة للتكرار.

ثانياً: يقول رسل (فالعلم يستطيع أنْ يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشريُّ لأجيال عديدة)، فلازم كلامه أنَّ الإنسان كلَّما ازداد علماً بالطبيعة وقوانينها زال منه الخوف عند وقوع الكوارث الطبيعيَّة والظواهر الطبيعيَّة المخوفة، وهذا اللازم يشهد الواقع ببطلانه فنحن نرى معظم البشر تنتابهم حالة الهلع والخوف عند وقوع الزلازل - مثلاً - بقطع النظر عن مستواهم العلمي، ولا تمنع معرفتهم بأسباب الزلزال من الخوف عند وقوعه.

ثالثاً: لازم كلام رسل أنَّه كلَّما تطوَّر الإنسان بالعلم زال خوفه من الموت، وهذا اللازم باطل جزماً بشهادة الواقع أيضاً، فحتى الملاحدة والعلماء يخشون الموت ولا يختص الخوف من الموت بالمؤمنين والجهلاء.



رابعاً: لازم كلام رسل أنَّه كلَّما تطوَّر الإنسان بالعلم زال خوفه من عدوان أخيه الإنسان، وهذا اللازم باطل جزماً أيضاً، فلم يستطع التطور العلمي في يوم من الأيام أنْ يحقق السَّلام وأنْ يجلب الشعور بالأمان وأنْ يكبح النوازع الشريرة لدى الفرد والشعوب والدول، وخير دليل على ذلك هو الدول الغربيَّة، فهي في سباق للتطور العلمي والمعرفي في جامعاتها الدراسيَّة ومختبراتها العلميَّة، ولم يمنعها ذلك من استعمار الشعوب وتدميرها، بل لم يمنحها ذلك الأمن والسَّلام فيما بينها حيث دخلت في صراع مع بعضها في حربين عالميتين.

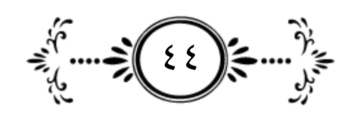
العجيب أنَّ برتراند رسل هو من بريطانيا أكثر الشعوب تطوراً من الناحية العلميَّة وقد عاصر مرحلتها الاستعماريَّة التي تقطر لها جبين البربريَّة خجلاً، كما عاصر الحربين العالميتين، والأعجب ما قيل عنه إنَّه من علماء الرياضيات، فأيُّ منطق بائس





هذا جعله يجزم أنَّ سبب نشوء الدين هو الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر، وأنَّه بمعرفة قوانين الطبيعة وتطور العلم والمعرفة سيزول الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر، وستزول النوازع الشريرة وستحلُّ مكانها مشاعر المحبَّة والتسامح والأمان والسَّلام بلا حاجة للدين ولا التفكر فيما بعد الموت، ولا لتعاليم الكنيسة كما يقول في النصِّ السابق: (نبذل قصارى جهودنا على الأرض لكي نجعل منها مكاناً مناسباً لحياتنا بدلاً من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلِّها على صنعه)!!

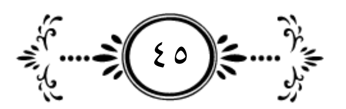
ليس هذا المنطق الرياضي ولا منطق من خبر التاريخ والواقع والنفس البشريَّة، إنَّه منطق الإلحاد الذي لا منشأ علميٌّ له ولا علاقة له بالعلم والمعرفة لا من قريب ولا من بعيد، كلُّ همِّه أنْ يخدع نفسه ويبرر لها إلحادها بتأطيره بإطار علميٍّ وهميٍّ، كالطبيب مدمن الخمر يأتي ليبرهن للناس منافعها، إنَّه منطق العالم الخائن



لعلمه - إنْ كان عالماً حقاً- وبرهان تهافت الملاحدة ونقضهم لمبادئهم، فها هو التطور العلمي والمعرفي قد بلغ القمة اليوم وبرهن أنْ لا زوال للخوف ولا اطمئنان للقلوب ولا رادع للنوازع الشريرة ولا مهذب للأخلاق ولا ضابط لسلوك الفرد والمجتمع بدون الدين الحقِّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(1).

خامساً: إنَّ الخوف حالة طبيعيَّة عند الإنسان تنشأ من حبِّه لذاته وإدراكه لحجمه الحقيقيِّ في الوجود، فالإنسان مفطور على حبِّه لذاته لأجل المحافظة عليها فلا يبذلها في غير ما يريده الله من خلقه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ

(1): سورة الحج، الآيات: ٦ ـ ٩.





لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١)، وهو مخلوق من ضعف كما يؤكد الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(٢)، ولا حول له ولا قوة فعليَّة إلَّا بمدد ممَّن له القوة الفعليَّة المطلقة، ولكنَّ الإنسان قد يغفل عن هذه الحقيقة التكوينيَّة التي يؤكدها القرآن فيستكبر أو يستقوي بما هو في ذاته ضعيف ولا ينتبه من غفلته إلَّا إذا انقطعت عنه كلُّ أسباب القوَّة الوهميَّة كما في الشاهد الذي يذكره الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ

---

(١): سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢): سورة الروم، الآية: ٥٤.





كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[1]، وربما عاد الإنسان إلى غفلته وخداع نفسه، فلا يذعن حتى يرى العذاب ولات حين مندم ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾[2].

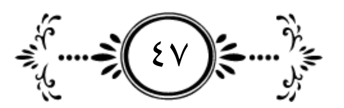
فالخوف ليس هو منشأ الدين والتديُّن وإنَّما هو كاشف عن واقع الإنسان وافتقاره إلى الله ذي القوَّة المتين وتعلُّقه الفطري به.

٥- فرضيَّة الأُسطورة وعاطفة التقديس

تمسَّك الكثير من الملاحدة بفرضيَّة الأُسطورة ليبرر إلحاده، ولكنَّ أَوَّل من ربط بين الأُسطورة وبين عاطفة التقديس للطبيعة كفرضيَّة لتفسير الدين هو الملحد الألماني ماكس مولر (توفي

(١): سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٢): سورة البقرة، الآيتان: ١٦٥ ـ ١٦٦.

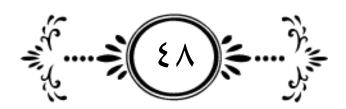




١٩٠٠م) والمعدود عند الغرب بأنَّه مؤسس علم الأديان المقارن (حيث يُرجع مولر نشأة الدين إلى أفعال قويَّة مارستها الطبيعة على الإنسان فأثارته، ويرى أنَّ هناك مرحلتين في نشأة الدين، الأُولى تكمن في التأمل والعجب والدهشة التي دفعت الإنسان إلى التفكير في أنَّه محاط بقوى مستقلة عن إرادته، والمرحلة الثانية هي التعبير عن هذا التفكير عن طريق اللغة، وقد عبَّر الإنسان عن هذه الطبيعة وقوَّاها في استخدامات لغويَّة كثيرة انفصلت عن التعبير المباشر بواسطة المجازات ثمَّ أصبحت هذه المجازات قائمة بذاتها فتحوَّلت إلى آلهة، لا سيما مع تطوّر اللغة وابتعادها عن مرحلة تكوين تلك المجازات لغوياً، وهكذا فرضت اللغة على الطبيعة عالماً خيالياً من الكائنات الروحيَّة التي أصبحت محرِّكة للطبيعة وجوهر المعتقد الديني)[1]، ومن الذين تابعوا ماكس مولر في ذلك واستفاضوا في

---

(١): علم الأديان، خزعل الماجدي، ص٤٤.



شرح فرضيته كارن ارمسترونج الملحدة اللادينيَّة البريطانيَّة المعاصرة، التي كانت راهبة كاثوليكيَّة فألحدت نتيجة عدم قناعتها بتعاليم الكنيسة، ففي كتابها (تاريخ الأُسطورة) قالت: (كانت بعض الأساطير الأُولى التي ربما يعود تاريخها إلى الفترة الباليباليثية ذات علاقة بالسماء، حيث أوحت للناس التصوَّر الأَوَّل عن الأُلوهيَّة، فعندما حدق الناس في السماء اللانهائيَّة والبعيدة والموجودة بشكل منفصل عن حياتهم الهزيلة تولَّدت لديهم تجربة دينيَّة... قد ملأ تأملُ السماء الناس بالرعب والابتهاج، بالدهشة والخوف، فالسماء اجتذبتهم ونفرتهم، إنَّها بطبيعتها الذاتيَّة إلهيَّة... في تلك الأوقات المبكرة اختبرنا العالم المحيط بنا كشيء غامض بعمق، ليضعنا في حالة من الرعب والدهشة اللذين هما جوهر العبادة... استمرت السماء رمزاً للقداسة لفترة طويلة بعد نهاية الفترة الباليباليثية... في لحظة ما ولا نعرف متى، بدأ الناس في أجزاء



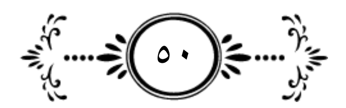
مترامية الأطراف من العالم في شخصنة السماء، وبدأوا يخبرون قصصاً عن (الله السماء) أو (الله الرفيع) الذي خلق السماء والأرض بيد واحدة من لا شيء)[1]، وفي كتابها (الله والإنسان) قالت: (عندما بدأ الناس بابتكار أَساطيرهم وعبادة آلهتهم فإنَّهم لم يكونوا يسعون إلى إيجاد تفسيرٍ حقيقيٍّ للظواهر الطبيعيَّة، فكانت القصص الرمزيَّة ولوحات الكهوف والنقوش محاولة للتعبير عن إعجابهم)[2].

خلاصة تقرير هذه الفرضيَّة حسب تصوير كارن ارمسترونج أنَّ السلالة الأُولى من البشر لَمَّا بدأوا بالتأمل في السماء ملأهم الشعور برهبة الجمال تعظيماً وتقديساً لها، ثمَّ لم يكتفوا بمجرد الإحساس بالقداسة بموضوع غير متشخص، بل قاموا بتشخيص السماء في شخصيات مجازيَّة في قصص ترمز إلى إعجابهم بالطبيعة، ثمَّ بتكثر التجمعات البشريَّة تكثرت أساطير الآلهة المجازيَّة،

---

(١): تاريخ الأُسطورة، ص٢١-٢٣.

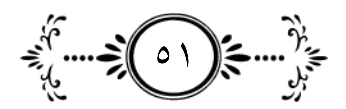
(٢): الله والإنسان، كارن ارمسترونج، ص١٩.



وبتطور السلالات البشريَّة وتطور الحياة وتغير طموحات البشر ورغباتهم وإساءة فهم الرموز والمجازات الأُسطوريَّة ظهرت الأديان، فأصل الأديان حسب ما تراه كارن ليس الجهل أو الخوف أو الفقر أو صناعة ملوك أو كهنة، وإنَّما هي متطوّرة عن الأساطير التي هي تعبير رمزي عن عاطفة القداسة تجاه عظمة الكون، ونحن نرفض هذه الفرضيَّة بجميع مشتقاتها فنقول:

أَوَّلاً: نتمكن أنْ نقول إنَّ فرضيَّة الأُسطورة هي أقدم فرضيَّة تمَّ طرحها للطعن في دين الإسلام، فقد ادَّعى أكابر المشركين في مكَّة أنَّ كتاب القرآن بما يشتمل عليه من المعارف وأخبار الأُمم ما هو إلَّا أساطير الأَوَّلين، وقد كان القرآن أميناً في نقل نصِّ دعواهم في تسعة موارد، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا

(١): سورة الأنعام، الآية: ٦٥.



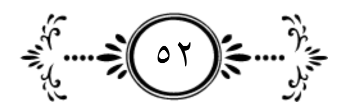


ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٢)، فلو كان ما جاء به النبيُّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله عبارة عن أساطير الأَوَّلين كما زعموا لما نصَّ القرآن على دعواهم في تسعة موارد ولكان الأَحرى به كتمان هذا الأمر والتعتيم عليه بدل أنْ يردده تسع مرَّات ويفضح نفسه، فذكر القرآن الكريم لهذه الفرضيَّة وترديده لها في تسعة موارد في قرآن يتلى إلى يوم الدين هو أعظم دليل على بطلان هذه الفرضيَّة.

ثانياً: إنَّ أكابر المشركين في مكَّة لَمَّا تمسكوا بفرضيَّة أُسطوريَّة القرآن قالوا إنَّهم لو شاءوا لقالوا مثل هذا، ولكنَّ القرآن تحدَّاهم أنْ يقولوا مثله فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا

(١): سورة الفرقان، الآية: ٥.

(٢): سورة الأنفال، الآية: ٣١.



لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1]، ولكنَّهم لم يقولوا رغم تكرار القرآن للتحدي أكثر من مرَّة، بل استسهلوا الحرب على القول، ومن هنا يظهر أنَّ السبب في ترديد القرآن لدعواهم أُسطوريَّة القرآن تسع مرَّات هو لإثبات عجزهم وكشف خزيهم وفضح كذبهم، والتحدي نفسه قائم أمام الملاحدة الجدد الذين لم يأتوا بجديد سوى محاولة إحياء هذه الفرضيَّة البالية وإلباسها ثوباً جديداً.

وهنا تتجلى أُلوهيَّة القرآن وخلود الرسالة الإسلاميَّة بإثبات الدعوى والتحدي في القرآن إلى يوم الدين كي نعلم أنَّما أُنزل بعلم الله وأنَّ الله موهن كيد الكافرين.

ثالثاً: ما برح أكابر المشركين في مكَّة يرددون دعواهم ويثقفون الناس على فرضيَّة أُسطوريَّة القرآن ليمنعوهم عن التصديق

(١): سورة هود، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.



والإيمان بدين الإسلام، ولكنْ مع ذلك فقد آمن الكثير من الناس خلال مرحلة ما قبل هجرة الرسول الأكرم إلى مدينة يثرب والتي دامت ثلاثة عشر عاماً، وقد عانوا في هذه المرحلة شتى أنواع الاضطهاد والتعذيب، حتى أمر الرسول الأكرم بعضهم بالهجرة إلى الحبشة وأمر البعض الآخر بالهجرة إلى يثرب، فلا معنى لإيمان الناس بالإسلام في تلك المرحلة الصعبة مع تثقيف المشركين لهم على فرضيَّة أُسطوريَّة القرآن سوى اعتقادهم بأُلوهيَّة القرآن وحقانيَّة مبادئ الإسلام وسخافة فرضيَّة الأُسطوريَّة.

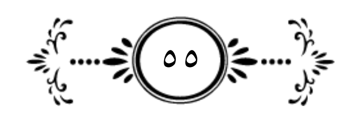
رابعاً: إنَّ المشركين أنفسهم في جزيرة العرب كان عندهم دين يعتقدون بحقانيته، ومع ذلك فقد وصفوا ما جاء به الرسول الأَكرم بأَنَّه أَساطير الأَوَّلين، وهذا يعني أنَّهم يفرقون بين العقائد والتعاليم الدينيَّة وبين القصص الأُسطوريَّة، فلو كانت الأديان هي عبارة عن قصص أُسطوريَّة رمزيَّة للتعبير عن الشعور بالمقدَّس كما تزعم كارن



ارمسترونج لما فرَّق المشركون بين معارفهم فوصفوها بالدين وبين معارف الإسلام فوصفوها بالأساطير.

إنَّ خبراء المشركين يميزون بين مفهوم الدين ومفهوم الأُسطورة ولا يقرون فرضيَّة أُسطوريَّة الأديان، وهم يعلمون أنَّ ما جاء به الرسول الأكرم ليس أَساطير، ولكنَّهم وصفوه بذلك بقصد التوهين تعصباً واستكباراً.

خامساً: لا ننفي وجود أديان أُسطوريَّة وضعيَّة زائفة في الأَصل وظهور أدعياء الاتصال بالله، كما لا ننفي تعرض دين التوحيد الإلهيِّ إلى عمليات تحريف وسطو ودخول الأَساطير فيه منذ فجر التاريخ البشري إلى يومنا هذا، ولأجل ذلك واتر الله سبحانه وتعالى بعث الأَنبياء والمرسلين إلى خلقه لتصحيح الانحراف وهداية الناس وإقامة دعائم الدين الحقِّ وإثبات المبادئ التي يُميز فيها بين الأصيل والدخيل، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ



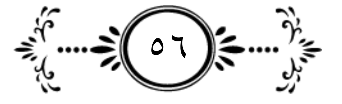
أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

---

(١): سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢): سورة يونس، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

(٣): سورة المؤمنون، الآية: ٥٢ ـ ٥٣.





وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2].

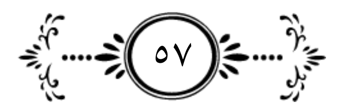
فالدين الواقعي واحد، هو دين التوحيد الإسلامي وهو دين الأنبياء والمرسلين كافة، الذين بعثهم الله تعالى وخاتمهم هو نبيّنا محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فيجب التفريق بين الأُسطوري والواقعي وبين الأصيل والدخيل.

سادساً: تقول كارن في النص السابق: (في لحظة ما ولا نعرف متى، بدأ الناس في أجزاء مترامية الأطراف من العالم في شخصنة

---

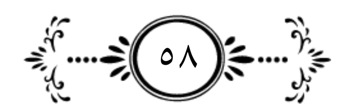
(١): سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢): سورة النساء، الآية: ١٣٦.



السماء، وبدأوا يخبرون قصصاً عن (الله السماء) أو (الله الرفيع) الذي خلق السماء والأرض بيد واحدة من لا شيء)، ولكنَّها لم تخبرنا عن السبب المفاجئ الذي دعا الناس إلى تشخيص السماء وابتكار إله السماء، كما لم تخبرنا عن سبب نقل الناس عاطفة القداسة من السماء إلى إله السماء، ولم تخبرنا عن سبب انتقال عاطفة تقديس إله السماء إلى عبادة إله السماء فإنَّ تقديس الشيء لا يقتضي عبادته، فنحن نقدِّس الأنبياء والأوصياء ولكنْ لا نعبدهم، لم تخبرنا كارن عن أسباب هذه الانتقالات وكيف حصولها لأنَّ فرضيتها باطلة وهي تريد ترقيعها بالطفرات، ولهذا فقد أنكر الكثير من الملاحدة فكرة رجوع ظهور إله السماء إلى تشخيص السماء وعدُّوها وهماً ساذجاً لأنَّه لا أثر لها في الأَساطير ولا تستند إلى فرضٍ منطقيٍّ كما سنذكر.

سابعاً: ما لا تريد كارن وأتباع هذه الفرضيَّة الإقرار به لأسباب نفسيَّة هو أنَّ البشر حينما يتفكرون في عظمة السماوات





والأرض فإنَّ مبدأ السببيَّة الفطريَّ يقودهم إلى الإذعان بوجود الله فاطر السماوات والأرض.

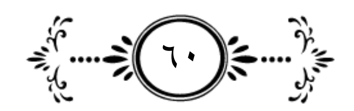
ثامناً: إنَّ أكابر زعماء الملاحدة رفضوا جعل أساطير الشعوب منشأً للدين أو محوراً لدراسة الأديان، ومنهم فريز زعيم الملاحدة الاسكتلندي (توفي ١٩٤١م) والمعدود عندهم رائد علم الأساطير (الميثولوجيا)، ففي كتابه (الغصن الذهبي) الصادر عام (١٨٩٠م) والمختص بسرد أساطير الشعوب تنصل من تهمة اعتبار الأساطير منشأً للدين، واعتبرها تفسيرات مغلوطة عن حياة الإنسان والكون، فقال في مقدمة الكتاب: (أتمنى بعد هذا التنصل الصريح ألَّا أُجازى بدفع غرامة اعتناقي لنظام ميثولوجي أنظر إليه على أنَّه خاطئ وعبثيٌّ ومنافٍ للعقل)[1]، وهذا برهان تهافت الملاحدة.

(١): الغصن الذهبي، جيمس فريزر، ص١٣.



تاسعاً: إنَّ كارن ارمسترونج تقود اليوم مشروعاً إلحادياً عالمياً بالكتابة والمؤتمرات يهدف إلى جمع كلِّ البشر في دين اللادين، فهي تدَّعي أنَّ جوهر الأديان كلِّها هو تقديس الإله المطلق غير المتشخص بأيِّ صفة، بل هو روح الطبيعة، وأنَّ كلَّ ماعدا ذلك من توصيفات الله والعقائد والشرائع التي تتمايز بها الأديان إنَّما هي من صناعة البشر بسبب اختلاف تعبيراتهم الخياليَّة عن عاطفة القداسة، أو ناشئة من سوء فهم اللغة الأُسطورية المجازيَّة لأساطير الأَوَّلين.

إنَّ السيدة كارن بمشروعها هذا تُفرغ الأديان التي يتبعها المليارات من البشر من الواقعيَّة الفكريَّة واللغويَّة وتحيلها إلى نحوٍ من الهلوسة الفكريَّة والهذيان اللغوي، هذا هو تفسيرها وتفسير جماعة الليبراليَّة الدينيَّة للوحي والنبوَّة والكتب المقدَّسة، الأنبياء بحسب زعمها أُناس صالحون قد تملكتهم عاطفة التقديس لروح الطبيعة، ولكن خانهم إدراكهم لروح الطبيعة كما خانتهم اللغة في





التعبير وربما هم تعمدوا التعمية لسبب لا نعرفه، كما خانهم إدراكهم لأَساطير الأَوَّلين البابليَّة والإغريقيَّة والهنديَّة المعبرة عن عاطفة التقديس لروح الطبيعة، والتي لا نعرف سبب إغراقها بالآلهة الخياليَّة التي تتزاوج وتتوالد وتتصارع ويقتل بعضها بعضاً مع دعوى أنَّها تعبير عن عاطفة التقديس تجاه روح الطبيعة، فألَّف الأنبياء الكتب على هذه الحالة وقدَّموها للمليارات من البشر التي أساءت بدورها فهم المقاصد غير المقصودة واللغة غير الأمينة، حتى جاءت هي وزعماء الإلحاد الليبرالي النافرون من تعاليم الكنيسة فأدركوا ما لم يدركه الأنبياء ومليارات المؤمنين بالله ورسله وكتبه!!

ونحن نقول: إذا لم يكن كلام كارن وأَساتذتها عبارة عن هلوسة وهذيان فلا توصيف آخر له، إنَّ فرضيتها باطلة من الأساس كما أوضحنا وقد وضعتها لتبرير هذه الهلوسة والهذيان الإلحادي.





٦- فرضيَّة الطوطمية والمجتمع

صاحب هذه الفرضيَّة هو إميل دوركايم(١) الملحد الفرنسي من أصل يهودي (توفي ١٩١٧م)، وهو معدود عند الغرب رائد علم الاجتماع وعلم الأنسنة وعلم الأديان، وقد بسط الكلام في شرح فرضيته في كتابه (الأشكال الأَوَّليَّة للحياة الدينيَّة) في ضوء دراسته لقبائل سكان أواسط أُستراليا الأَصليين الذين تمَّ العثور عليهم عند اكتشاف أستراليا، حيث يزعم دوركايم أنَّ هذه القبائل ما تزال محافظة على خصائص المجتمع البشري الأَوَّل ممَّا تمكن دراستها من معرفة الشكل الأَوَّل للحياة الدينيَّة ومعرفة أسباب الظاهرة الدينيَّة فيقول: (لا يمكننا أن نتوصل إلى فهم لأَحدث الأديان إلَّا باتباع الطريقة التي تمَّ بها تأليفها تدريجياً في التاريخ... في كلِّ مرَّة نتعهد فيها بشرح شيءٍ بشريٍّ، مأخوذ في لحظة معينة من التاريخ – سواء

(١): راجع: قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية، مادة (دوركايم، إميل).



كان ذلك اعتقادًا دينيًا أو مبدأً أخلاقياً أو مبدأً قانونياً، أُسلوبًا صناعيًا أو نظامًا اقتصاديًا – من الضروري البدء بالعودة إلى شكله الأكثر بدائيَّة وبساطة، لمحاولة معالجة الخصائص التي كانت تميّزه في ذلك الوقت من وجوده، ثمَّ توضيح كيف تطوَّر وأصبح أكثر فأكثر تعقيداً، وكيف أصبح ما هو عليه في الوقت الراهن)[1].

وخلاصة مزاعم دوركايم هي أنَّه وجد سكان تلك القبائل يعبدون الطوطم، والطوطم هو عبارة عن وثن غالباً ما يكون على شكل حيوان كالكنغر أو النعام أو الذئب وأحياناً يكون شجرة أو جماداً كالشمس أو القمر.

وكلمة (طوطم) مأخوذة من لغة الأبجوا لبعض قبائل الهنود الحمر سكان أميركا الأصليين الذين عثر عليهم عند اكتشاف أميركا

(١): الأشكال الأَوَّليَّة للحياة الدينيَّة، ص٤.



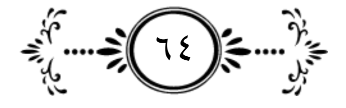


وتعني المؤسس أو الحامي[1]، وأَوَّل من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام (١٧٩١م).

يزعم دوركايم أنَّ لكلِّ عشيرة طوطمها الخاص بها، وهي مرتبطة به برابطة القرابة والتبعيَّة الاجتماعيَّة وربما تعتقد أنَّها منحدرة منه، وأنَّها ترتب على ذلك نظاماً اجتماعياً كتحريم قتل واصطياد وأكل أفراد ذلك الحيوان الذي تتخذه العشيرة طوطماً، وكذلك تحريم الزواج بين أفراد العشيرة المنتسبة لطوطم معين، أي أنَّ من يريد الزواج فعليه أنْ يتزوج من خارج العشيرة، بهذا يدَّعي دوركايم أنَّه قد اكتشف الديانة الطوطميَّة، أَمَّا تفسيره لهذه الديانة فهو يزعم أنَّ سبب اعتبار الطوطم مقدَّساً يرجع إلى أنَّه يمثل رمزاً للجماعة نفسها، فهو يجسِّد القيم المحوريَّة في حياة الجماعة أو

---

(١): راجع: موسوعة الدين والطبيعة، تحرير براون تايلور، مادة (الطوطمية Totemism) – قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية، مادة (الطوطمية).



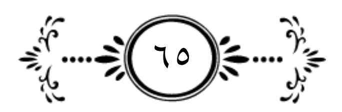


المجتمع وليست مشاعر الإجلال والإكبار التي يحملها أفراد الجماعة تجاه الطوطم إلَّا تعبيراً عن تقديسهم للقيم الاجتماعيَّة الأساسيَّة السائدة بينهم، فالطوطم يجسد الهويَّة الاجتماعيَّة للقبيلة ويؤكد وحدتها العضويَّة.

إنَّ موضوع العبادة هو المجتمع نفسه الذي يسعى إلى أنْ يؤكد ذاته بذاته، فلا معبود واقعاً سوى المجتمع، بهذا يخلص دوركايم إلى تعريف الدين بأنَّه: (الدين هو نظام موحد للمعتقدات والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدَّسة، أي محظورة وممنوعة، إنَّها المعتقدات والممارسات التي توحّد في مجتمع أَخلاقيٍّ واحد يسمَّى الكنيسة، كلُّ أولئك الذين يلتزمون بها)[1].

---

(١): الأشكال الأَوَّليَّة للحياة الدينيَّة، ص٧٤.





ونحن نردُّ هذه الفرضيَّة فنقول:

أَوَّلاً: يدلِّس دوركايم الوقائع لكي يمرر أيديولوجيته بأصالة المجتمع، فهو نفسه يشير في الفصل الخاص عن فكرة الروح والآلهة فيقول: (تعترف الأديان الأسترالية بالفعل بالشخصيات الأُسطوريَّة ذات الرتبة العليا: الأرواح، الأبطال الخارقين وحتى الآلهة الذين يدعون كذلك بشكل صحيح)[1]، ولكنَّه يزعم أنَّها مبالغة في فهم الوقائع أو حالات استثنائيَّة أو مجرد أَساطير وليست ديناً.

ثانياً: رأينا سابقاً دوركايم وهو يستنكر فرضيَّة الأرواح والأحلام ويرى أنَّها لا يجدر أنْ تصدر من عاقل فيقول: (لا يجدر أنْ يخطر بالبال أنَّ مجموعات من الأفكار مثل الدين، والتي أدَّت دوراً مهماً للغاية على مرِّ العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كلِّ الأَزمنة لأَجل الحصول على القوَّة المطلوبة لبقائها، لا يعقل أنْ تكون

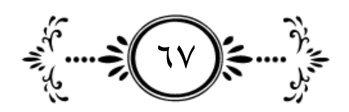
(١): المصدر السابق، ص٢٧٣.



مجرد نسيج من الأوهام)، والآن هو من ينقل عن القبائل الأُستراليَّة الأصليَّة أنَّهم يعبدون الطوطم ولكنَّه يقول لهم إنَّكم واهمون فأنتم لا تعبدون الطوطم لذاته، وإنَّما بما هو يجسد هويتكم الاجتماعيَّة، فأنتم حقيقة تعبدون مجتمعكم، ولمّا كان دوركايم يدَّعي أنَّ الديانة الطوطميَّة هي أصل كلِّ الأديان، فلازم ذلك أنَّ كلَّ الأديان نشأت عن وهم! فاستنكار دوركايم هذا لفرضيَّة الأرواح والأحلام ينطبق على فرضيته ويكشف لا عقلانيَّة الملاحدة وتهافتهم.

ثالثاً: يزعم دوركايم أنَّ الدين هو منتوجٌ جمعيٌّ ولكنَّ الواقع التاريخيَّ يكذب ذلك، فإنَّ فرداً من المجتمع وهم الأنبياء والمرسلون كنبينا محمَّد صلَّى الله عليه وآله والنبيِّ عيسى والنبيِّ موسى عليهما الصَّلاة والسَّلام هم من جاء بالدين الحقِّ والشرائع.

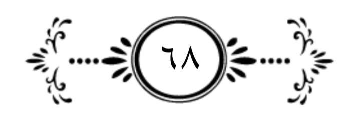
رابعاً: يزعم دوركايم أنَّ الطبيعة الحضاريَّة للمجتمع هي من يصنع الدين المناسب للمجتمع، ولكنَّ الواقع يكذب ذلك فالدين



النصراني هو من غيَّر الطبيعة الحضاريَّة للمجتمع الغربي وخلق حضارة جديدة، والدين الإسلامي هو من غيَّر الطبيعة الحضاريَّة للعرب والشرق عموماً وخلق حضارة جديدة.

خامساً: لوكان الدين هو من إنتاج المجتمع فلماذا نجد في المجتمع الواحد أكثر من دين؟ ففي المجتمع العربي مثلاً نجد الدين الإسلاميَّ والنصرانيَّ واليهوديَّ وغيرها، وهكذا جميع المجتمعات، أي أنَّه حسب فرضيَّة دوركايم فإنَّ كياناً اجتماعياً واحداً ينبغي أنْ يفرز ديناً واحداً يجسِّد الهويَّة الجمعيَّة لأفراده، فلماذا نجد في المجتمع العربي العراقيِّ مثلاً الفرد اليهوديَّ والفرد النصرانيَّ والفرد المسلم، هذا تهافت.

سادساً: إنَّ تقديس واحترام ما يكون رمزاً وشعاراً شيء آخر غير التأليه والعبادة له، فكلُّ مجتمع لديه رموز وشعارات وشعائر وأشياء مقدَّسة يعاملها بكلِّ إجلال واحترام، ولكنَّه لا يعبدها





بالضرورة، وبالفعل فإنَّ أبحاثاً قام بها لانج وفريزر وغيرهما أثبتت أنَّ الطوطميَّة هي منظومة اجتماعيَّة قبليَّة وليست دينيّة كما كان زعم دوركايم، وأنَّ فكرة الدين نشأت بعيدًا تمامًا عن هذه التصورات الساذجة، والتحليلات الواهية! يقول الملحد فريز في مقدمة كتابه: (لكنِّي بعيدٌ كلَّ البعد عن اعتبار إجلال الشجرة ذات أهميَّة مميزة في تطور الدين، بل هو عامل ثانوي إذا ما قورن بالخوف من البشر الموتى الذي أَعتبره القوة الأعظم في نشأة الدين البدائي)[1]، يريد فريزر أنْ يقول إنَّ مجرد احترام أو تقديس الموجودات الطبيعيَّة عند البدائيين ليس هو المنشأ الحقيقي للدين، بل هو يرى أنَّ منشأ الدين هو الخوف من أرواح الموتى الذي تطوَّر إلى عبادة أرواح الأسلاف، ونحن قد رددنا فيما تقدَّم فرضيَّة الأرواح وفرضيَّة الخوف بجميع صورهما.

---

(١): الغصن الذهبي، ص١٢.



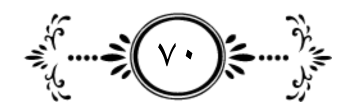


فالطوطم شعارٌ قوميٌّ ورمز يُعرِّف القبائل بأنسابها ويبعث على التعاون والالتزام لا أكثر كما نقل فرويد الذي سنعرض فرضيته لاحقاً عن كين قوله: (نتجت الطواطم عن شارات الرايات التي أراد بها الأفراد والعائلات والقبائل تمييز بعضهم عن بعض)[1]، فتلك القبائل كان لهم إله معبود آخر كما أشار دوركايم إلى ذلك وحاول طمس الحقيقة.

سابعاً: اكتشف الكثير من علماء الغرب خطأ دوركايم في موضوع بحثه، فهو قد ركَّز دراسته على قبائل أوسط أُستراليا مدعياً أنَّها تمثل أقدم طور معروف للحياة البشريَّة، لكنَّ الأبحاث الأحدث أثبتت أنَّ قبائل جنوب شرق أستراليا هم أقدم من قبائل الوسط، بل أثبتت الأبحاث النهائيَّة أنَّ قبائل الأقزام في وسط إفريقيا يمثلون أقدم طور في الحياة البشريَّة، وأنَّهم يفوقون في

---

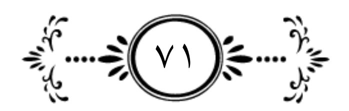
(١): الطوطم والتابو، سيجموند فرويد، ص١٣٤.



البدائيَّة قبائل جنوب شرق أُستراليا، ولم يجد فلهلم شمدت وغيره في عقائد تلك الجماعات أيَّ أثر لعبادة الطبيعة أو الأرواح، أمَّا أميز عقائدهم فهي عبادة سيد العالم الموجود الأسمى[1].

ثامناً: منذ أنْ تمَّ اكتشاف السكان الأصليين في أميركا وأستراليا وملاحدة الغرب ينهالون عليهم تنظيراً بعد أنْ أثبتوا لهم لقب (الأقوام البدائيَّة)، فجعلوهم مادة لدراسة السلالة الأُولى من البشر، ولكنَّ أَوَّل الكلام، من قال إنَّ هؤلاء يمثلون السلالة الأُولى من البشر؟ إنَّ هؤلاء بشر معاصرون لنا وأعمارهم كأعمارنا ولا نعرف بالضبط الظروف التي أوجبت تأخرهم العلمي والاقتصادي والتكنولوجي، كما لا نعلم على وجه اليقين شيئاً عن ماضي أسلافهم الممتد لآلاف السنين، فتوصيفهم بالبدائيَّة واعتبارهم يمثلون السلالة الأُولى للبشر - ولو على نحو التقريب - ثمَّ تركيب

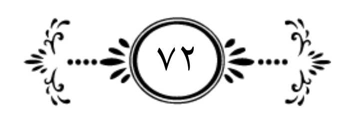
(١): راجع: نشأة الدين، علي سامي النشار، ص١٩٦.





الفرضيَّات المؤدلجة عليهم وتقديمها للناس كعلوم سيسولوجية وإنثربولوجية وثيولوجية ينطوي على خيانة علميَّة كبيرة وجريمة أخلاقيَّة خطيرة.

تاسعاً: السيد دوركايم هو من زعماء الإلحاد الفرنسي في القرن التاسع عشر عصر الثورة الصناعيَّة وصعود موجة الإلحاد الأُوروبي، وهو من جهة يرى أَدنى مستويات الانحطاط التي وصل إليها المجتمع الفرنسي ويعلم أنَّ لا العلم ولا القانون ولا التطور الاقتصادي ولا التطور التكنولوجي ممكن أنْ يقوم بوظيفة الدين في التربية الروحيَّة للمجتمع وتهذيب أخلاق الناس وضبط سلوكهم، فتراه يعترف بضروريَّة الدين لحفظ كيان المجتمع في خاتمة كتابه فيقول: (هناك شيء خالد في الدين مقدّر له أنْ ينجو من جميع الرموز الخاصة التي طغى فيها الفكر الديني على نفسه، لا يمكن أنْ يكون هناك مجتمع لا يشعر بالحاجة إلى التمسك وإعادة التأكيد على





فترات منتظمة على المشاعر الجماعيَّة والأفكار الجماعيَّة التي تجسد وحدته وشخصيته)[1]، ولكنَّه من جهة أُخرى مختصم مع الأديان الموجودة ويعتبرها أصبحت قديمة أو ميتة.

هذه الهواجس والمشاعر المضطربة هي ما حدت به إلى ابتداع فرضيَّة مجتمعيَّة الدين، ولذلك هو في خاتمة كتابه يطلب من مجتمعه المعاصر أنْ يبتدع دينه الخاص به بعد أنْ سخر من محاولة اوغست كونت الفرديَّة في ابتداع دين جديد على غرار الأَديان التي وصفها بالقديمة، فيقول: (الآلهة القديمة أصبحت قديمة أو ميتة بالفعل، والبعض الآخر لم يولد بعد، هذا ما جعل محاولة كومت عبثاً تحفها الهدايا التذكاريَّة التاريخيَّة القديمة، إنَّها الحياة نفسها، وليس الماضي الميت الذي يمكن أنْ ينتج عبادة حيَّة، لكنَّ هذه الحالة من الاضطراب والإثارة المشوشة لا يمكن أنْ تستمر إلى الأبد، سيأتي

---

(١): الأشكال الأَوَّليَّة للحياة الدينيَّة، ص٤٢٨.





يوم تنجح فيه مجتمعاتنا مرَّة أُخرى في معرفة تلك الساعات من الإبداع الخلَّاق، والتي تنشأ خلالها أفكار جديدة وتوجد صيغ جديدة تعمل لفترة من الوقت كدليل للإنسانيَّة)[1].

ولكنَّ دوركايم قد مات، ومات مجتمعه المعاصر له، وماتت فرضيته بعد أن استنكرها المجتمع العام والمجتمع الأكاديمي، وبقي الدين الذي اعترف أنَّه يشتمل على سمة الخلود.

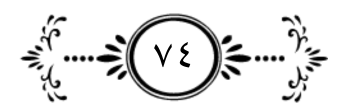
٧- فرضيَّة الصراع النفسي

صاحب هذه الفرضيَّة هو سيجموند فرويد (توفي ١٩٣٩م) الملحد من أَصلٍ يهوديٍّ نمساويٍّ، والمعدود عند الغرب مؤسس علم النفس التحليلي[2]، طرح فرويد فرضيته هذه في كتابه (الطوطم

---

(١): المصدر السابق، ص٤٢٨.

(٢): راجع: قاموس اكسفورد الطبي، مادة (فرويد، سيجموند).- قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية، مادة (فرويد، سيجموند).



والتابو) ثمَّ لخَّصها في كتابه (حياتي والتحليل النفسي)، فقال: (قبل أنْ أفهم الصِّلات العميقة وصفت عصاب الوسوسة بأنَّه دين خاص مشوه، والدين بأنَّه عصابٌ وسواسيٌّ عام... فبينت في أَربع رسائل جمعت في كتاب بعنوان (الطوطم والتابو) أنَّ الفزع من الاتصال بالمحارم أبرز لدى الأجناس البدائيَّة منه لدى المتمدنة...، كانت نقطة بدايتي هي ذلك التقابل البارز بين الأمرين اللذين حرمتهما الطوطمية (أعني تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأيَّة امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصري عقدة اوديب (أعني قتل الأب واتخاذ الأُمِّ زوجاً) فأغراني ذلك أنْ أُساوي الطوطم الحيوان بالأب... خطر لي من كلِّ هذه العناصر الفرض التالي أو بالأَحرى الرؤية التالية: حيث إنَّ أب القبيلة كان طاغية لا حدَّ لسلطانه فقد استولى لنفسه على جميع النساء، وحيث إنَّ أولاده كانوا غرماء خطراً عليه فقد قتلهم أو نفاهم، بيد أنَّ الأولاد تجمعوا

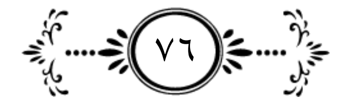




ذات يوم وائتمروا على أنْ يقهروا أباهم ويغتالوه ثمَّ يفترسوه، أباهم الذي كان لهم عدواً ومثلاً أعلى في الوقت نفسه، وبعد أنْ تمَّ لهم ما أرادوا دبَّ الخلاف بينهم فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا، ولكنَّهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أنْ يصلحوا ذات بينهم وينتظموا في قبيلة من الأُخوَّة مستعينين بقوانين الطوطميَّة التي تهدف إلى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة، وأجمعوا أمرهم على أنْ يتخلوا عن امتلاك النساء اللائي من أجلهن اغتالوا أباهم، وكان عليهم بعدئذٍ أنْ يلتمسوا نساءً غريبات، وذلك هو الأصل في الزواج الخارجيِّ الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالطوطميَّة، والآن سواء تصورنا أنَّ احتمالاً هذا شأنه كان واقعة تاريخية أَم لم يكن، فهو قد أَدخل الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة)[1].

---

(١): حياتي والتحليل النفسي، سيجموند فرويد، ص١٠١-١٠٣.



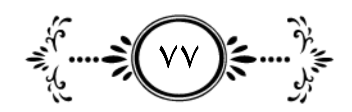


وخلاصة تقرير هذه الفرضيَّة أنَّ فرويد لَمَّا اطلع على الأبحاث الخاصة بالطقوس الطوطميَّة وجدها تشتمل على أمرين أساسيين هما:

١: تحريم قتل أفراد الحيوان الطوطم المتخذ رمزاً للعشيرة والذي يدَّعي أبناء العشيرة انحدارهم منه.

٢: تحريم الزواج بين أفراد العشيرة.

وجد فرويد هذين الأمرين يتوافقان مع نظريته في علم النفس القائمة على أساس إرجاع الأمراض النفسيَّة إلى صراع النفس مع رغبات جنسيَّة مكبوتة فيما أسماه (اللاشعور)، ممَّا دعاه إلى افتراض فرضٍ خياليٍّ وهو أنَّ منشأ الدين الطوطمي الذي هو عنده أصل الأديان ربما كان سببه أنَّ السلالة الأُولى من البشر كان يحكمها الأب وكان يستحوذ على النساء، فقام الأبناء بقتله وأكله واستحوذوا على أُمَّهاتهم، ثمَّ شعروا بالندم على هذه الجريمة فجعلوا الحيوان الطوطم رمزاً لأبيهم يقدِّسونه ويحرمون قتله، كما





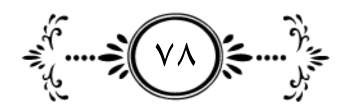
حرموا زواج الأقارب المنتسبين لهذا الأب، على هذا الأساس اعتبر فرويد أنَّ الدين عبارة عن مرضٍ نفسيٍّ وأنَّ الإلحاد يعتبر حالة نفسيَّة صحيَّة، وأنَّ كلَّ الأديان تأسست على أساس التكفير عن تلك الجريمة الأُولى.

ونحن نردُّ على هذه الفرضيَّة المرضيَّة التي انفرد بها فرويد ولم يتابعه عليها أحد من كبار الملاحدة فنقول:

أَوَّلاً: إنَّ أصل نظريَّة فرويد في علم النفس التحليلي تقوم على أساس إرجاع كلِّ نشاطٍ بشريٍّ بل كلّ الحضارة الإنسانيَّة إلى تأثير الغريزة الجنسيَّة والصراعات المكبوتة في اللاشعور، فيقول: (في ختام هذه الدراسة المعدَّة باختصار شديد أودُّ أنْ أَذكر حصيلتها، وهي أنَّه في عقدة اوديب تلتقي بدايات الدين والأخلاق والمجتمع والفن)[1]، هذه النظريَّة لا تصدر من إنسان عاقل ذي شخصيَّة

---

(١): الطوطم والتابو، ص١٨٣.

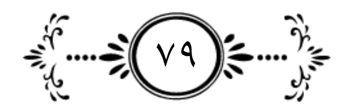


سويَّة، فهي تؤصل للرذيلة باسم العلم، ويكفي أن نقول إنَّه قد رفضها واستنكرها كلُّ كبار علماء النفس عند الغرب من جميع المدارس النفسيَّة وبعضهم من الملاحدة(1)، أبرز من رفضها كارل يونغ (توفي ١٩٦١م) وهو زميل فرويد والمعدود عندهم مؤسس علم النفس التحليلي ورئيس رابطة علم النفس التحليلي الدوليَّة، كما رفضها ألفرد آدلر (توفي ١٩٣٧م) وهو زميل فرويد وتلميذه الشهير والمعدود عندهم مؤسس علم النفس الفردي.

ثانياً: إنْ كان كلُّ السلوك البشريِّ عند فرويد راجعاً إلى تأثير الغريزة الجنسيَّة وإلى صراع النفس مع الرغبات الجنسيَّة المكبوتة في الحيز الذي اخترعه وأسماه (اللاشعور) واعتبره مستودعاً للرغبات التي تمَّ قمعها وإلقاؤها بعيداً عن الوعي، فلماذا لا يكون موقفه من الدين وسلوكه الإلحادي راجعاً أيضاً إلى ذلك الصراع في اللاشعور

---

(١): راجع: مدارس علم النفس، حسين الغامدي.



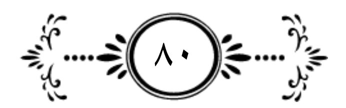


وهو لا يشعر؟ إنَّ في نشأة فرويد ما يدعم ذلك، فهو ابن لتاجرٍ يهوديٍّ تزوَّج ثلاث نساء، كما كان فرويد منبوذاً في الوسط الدراسيِّ النصرانيِّ بسبب عِرقه وديانته اليهوديَّة، فلم يتمكن برغم ثرائه وجماله وذكائه من إيجاد من يحبُّه، وقد أشار بنفسه إلى ذلك في سيرة حياته فقال: (وعند التحاقي بالجامعة عام ١٨٧٣ عانيت من خيبة الأمل الشيء الكثير، فقد واجهت التزاماً غريباً كان عليَّ أنْ أشعر أنَّني دون غيري من الناس، وأنَّني غريب عنهم لأنَّني كنت يهودياً)[1]، إنَّنا لا نعترف بخزعبلاته ولكنَّها حجَّة عليه.

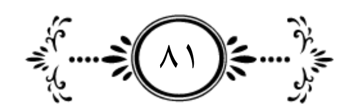
ثالثاً: إنَّ فرضيَّة فرويد في أصل الدين مبنيَّة على معطيات الديانة الطوطميَّة، ونحن قد أثبتنا بطلان تلك المعطيات عند مناقشة فرضيَّة الطوطميَّة والمجتمع، وذكرنا ما نقله هو عن بعضهم من أنَّ الطواطم ليست إلَّا إعلاماً وشعاراً للتمييز بين القبائل.

---

(١): حياتي والتحليل النفسي، ص٢١.



رابعاً: يدَّعي فرويد أنَّ كلَّ الأديان تأسست للتكفير عن تلك الجريمة الأُولى التي افترضها (جريمة أكل الأب والاستحواذ على الأُمِّ)، وأنَّ كلَّ الأديان لأجل ذلك تكون مرضاً نفسياً، ونحن نقول: إذا كان جميع الأديان والمتدينين لا يعرفون تلك القصة أصلاً ولم يسمعوا بها على فرض حصولها، فكيف أقاموا دينهم وتدينوا على أساسها؟!! بل إنَّ تلك القصة هو نفسه يقرُّ أنَّه اختلقها كاحتمال لتفسير النظام الطوطمي، فحتى سكان أستراليا الأَصليين لا يعرفونها، ثمَّ لا نعلم كيف يكون الدين مرضاً نفسياً مع أنَّ كلَّ الأديان حتى الوضعيَّة تدعو إلى تهذيب النفس ومكارم الأخلاق، بينما الإلحاد هو الوحيد الذي يدعو إلى تدمير النفس باعتبارها نفاية بايوكيميائيَّة ويدعو إلى الفجور ويكون صحة نفسيَّة!! هذا الكلام لا واقع له بل الواقع يكذبه، ولمَّا كان فرويد يعلم ذلك فقد اخترع أُسطورة صاغها بنفسه وفسَّر على أساسها فرضيته في أصل الدين ليبرر إلحاده وأمراضه النفسيَّة.





خامساً: إنَّ فرويد يعترف بجهله بأُصول الطوطميَّة فيقول: (ونحن لا نستطيع أنْ نقول بثقة كيف كان جانبا الطوطميَّة مرتبطين ببعضهما في الأصل، بسبب جهلنا بأُصول الطوطميَّة)[1]، ويرجع سبب جهله إلى اضطراب آراء الباحثين فيقول: (بالتأكيد سيدهش قرائي عندما يعلمون كم هي مختلفة وجهات النظر التي حاولت الإجابة عن هذه المسائل، وكم تتباعد آراء الباحثين المختصين حولها، بهذا أصبح إلى حدٍّ ما مشكوكاً بكلِّ ما قيل عموماً حول الطوطميَّة والتزاوج الخارجي)[2]، وهو يعترف أنَّ فرضيّته ليست تفسيراً كاملاً للدين فيقول: (ليس للمرء أنْ يخشى على التحليل النفسيِّ... من أنْ ينجر إلى اشتقاق شيء معقد مثل الدين من أصل وحيد، وإذا أراد مضطراً اضطراراً يمليه عليه الواجب أنْ يكون أُحادياً وتبنى منبعاً واحداً فحسب من منابع هذه المؤسسة

(١): الطوطم والتابو، ص١٢٧.

(٢): المصدر السابق، ص١٣١.





الاجتماعيَّة، فإنَّه لا يزعم أنَّ هذا المنبع حصريٌّ)[1]، وهو يقرُّ في نهاية تلخيص فرضيّته أنَّ قصته لتفسير الدين هي مجرد أُسطورة افترضها فيقول: (والآن سواء تصوَّرنا أنَّ احتمالاً هذا شأنه كان واقعة تاريخيَّة أَم لم يكن، فهو قد أدخل الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواجِ العاطفيِّ الذي يسيطر على هذه العقدة)[2].

تكفينا هذه الاعترافات منه برهاناً على بطلان الفرضيَّة وتهافتها.

القيمة المعرفيَّة لفرضيات الملاحدة

أَوَّلاً: هذه هي معظم فرضيَّات الملاحدة في أَصل الدين، وكما رأيتم فهي على كثرتها مجرد فرضيَّات واهية في نفسها مفتقرة إلى البرهان، وعلى الرغم من أنَّ واضعي هذه الفرضيَّات هم زعماء الملاحدة، فهي تهدم بعضها بعضاً، فتعدد الفرضيّات وبطلانها في

---

(١): المصدر السابق، ص١٢٣.

(٢): حياتي والتحليل النفسي، ص١٠٣.





نفسها ونقض كلٍّ واحدة منها لغيرها يكشف تهافت الملاحدة واضطرابهم وعدم قيام الموقف الإلحادي على أُسس علميَّة صحيحة.

ثانياً: إنَّ جميع فرضيّات الملاحدة قائمة على فرضيَّة (التطور الاجتماعي) التي قال بها الملحد البريطاني هربرت سبنسر[1](توفي ١٩٠٣م)، والتي ظهرت متزامنة مع فرضيَّة التطور البايلوجي لداروين في القرن التاسع عشر، وتنظر فرضيَّة التطور الاجتماعي إلى الحضارة ككيان واحد قد تطوَّر من الحالة البسيطة إلى الحالة المعقدة كما تطوّرت الأجناس من كائن بسيط وحيد الخلية إلى الأجناس العالية حسب فرضيَّة دارون.

على أساس هذه الفرضيَّة التطوريَّة قامت جميع فرضيّات الملاحدة في تفسير الدين، لكنَّ هذه الفرضيَّة عارضها الكثير من علماء الغرب وبعضهم من الملاحدة، فقد عارضها الملحد الألماني

(١): راجع: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مادة (سبنسر، هربرت).



شبنجلر (توفي ١٩٣٦م) الذي أطلق فرضيَّة (الانهيار الحضاري) التي تذهب إلى حتميَّة موت الحضارة وولادة حضارة أُخرى على أنقاضها[١]، كذلك فإنَّ الشيوعيَّة الماركسيَّة الإلحادية رغم قيام فلسفتها التاريخيَّة الاجتماعيَّة على فرضيَّة التطور فإنَّها باعتبارها لمكونات الحضارة (الدين والأخلاق والثقافة والفكر)، هي عبارة عن بناءٍ فوقيٍّ متولدٍ عن البنية التحتيَّة الاقتصاديَّة فهي ذهبت إلى فرضيَّة حتميَّة سقوط الحضارة القائمة على الرأسماليَّة البرجوازيَّة وزوالها. هذا التهافت يكشف أنَّ جميع فرضيّات الملاحدة قائمة على أساس غير ثابت وعلى شفا جرف هار.

ثالثاً: إنَّ النظر إلى الدين كظاهرة اجتماعيَّة وبعد ذلك دراستها ووضع الفرضيَّات في أسبابها هو منظار خاطئ أصلاً ابتدعه الملاحدة للتنظير لإلحادهم، فأَوَّل الكلام من قال إنَّ الدين هو

---

(١): راجع: معجم الفلاسفة، مادة (شبنجلر).



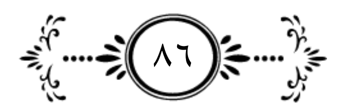


ظاهرة اجتماعيَّة وصناعة بشريَّة؟ لماذا لا يكون مقتضى الفطرة ورسالة إلهيَّة؟ إنَّ زعماء الملاحدة قد ألحدوا أَوَّلاً لأسباب غير علميَّة ثمَّ بعد ذلك زعموا أنَّ الدين هو صناعة بشريَّة وراحوا يبحثون عن أسبابه، تماماً مثل زعماء مشركي مكَّة وزعماء اليهود والنصارى، فهم قد كفروا أَوَّلاً بما جاء به النبيُّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تعصباً واستكباراً وبغياً وحسداً وطمعاً وهم يعلمون جيداً أنَّه الحقُّ من ربِّهم ثمَّ راحوا يُنَظِّرُون لكفرهم فقالوا: إنَّه أَساطير الأَوَّلين، بل شعر شاعر، بل أضغاث أحلام، بل سحر ساحر، بل هذيان مجنون، بل افتراه بل هو كاذب ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[1]، وحاشاك يا حبيب الله بل أنت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[2].

---

(١): سورة الفرقان، الآية: ٩.

(٢): سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦.





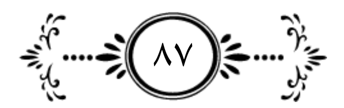
أصل الفطرة الإلهيَّة

الفَطْر: في الأصل هو الشّق طولاً والجمع فُطور، وقد يكون الفَطْر على وجه الصلاح مثل: فطرت الأرض أي شققتها للزراعة، وقد يكون على وجه الفساد والخلل مثل: انفطر الجدار فهو مفطور أي انشق وتصدَّع، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾(١)، أي لن ترى خللاً وفساداً في تصميم النظام الكوني، ويأتي (الفَطْر) بمعنى أصل الإيجاد والابتداع فيقال: فطر فلان البئر أي أوجده وابتدعه، ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، أي خالق

---

(١): سورة الملك، الآية: ٣.

(٢): سورة فاطر، الآية: ١.





ومبدع وموجد السماوات والأرض، والفِطْرة: أصل الإيجاد والخِلقة، وفَطْر الله للخلق هو إيجاده وإبداعه[1].

الفطرة الإلهيَّة للنوع الإنساني: هي خلق الله للإنسان وتصميمه له في أحسن تقويم يناسب تحقيق الغاية من خلقه ويعطيه ميزة الأفضليَّة في مراتب الوجود ويرشحه لخلافة الله في الأرض، ولها جانبان: مادي وروحي، أمَّا الجانب المادي للفطرة فقد فطر الله التكوين الجسمي للإنسان بتصميم يميزه عن سائر المخلوقات، يقتدر معه على ما لا يقتدر عليه غيره من الفعل والإدراك، وأودعه من الأسرار بحيث يكون مؤهلاً لإنتاج أنماط جديدة من الأفعال في سلسلة تكامليَّة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[2]، أمَّا

(١): راجع: لسان العرب، ابن منظور، مادة (فطر)، ج٥ ص٥٥.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (فطر)، ج٢ ص١٩٨.
(٢): سورة الملك، الآية: ٢٣.



الجانب الروحي للفطرة فقد فطر الله التكوين النفسي للإنسان على فضائل الأخلاق ومعرفة الحقائق العالية وإبداع الأفكار والارتقاء في سلم القيم النبيلة والمعارف.

الفطرة البشريَّة بكلا جانبيها تشهد بوجود الله الكامل المطلق لأنَّ الإنسان بكلا جانبيه الروحي والمادي هو محض الحاجة والافتقار النازع نحو الكمال الجامع لكلِّ صفات الجمال والجلال، وهذا الأمر يدركه كلُّ إنسان يبصر ذاته وما حوله وكفى بالإنسان على نفسه بصيرة، هذا برهان ونور للإنسان من ذات الإنسان على وجود الله وربوبيته ووحدانيته وكماله المطلق، تجده في حالته الصافية عند الأطفال حيث لم تتكدر فطرتهم بعدُ بشوائب السيئات، فأصل الدين هو هداية الفطرة إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1)، إنسانيَّة الإنسان تقتضي دين

(1): سورة الروم، الآية: ٣٠.

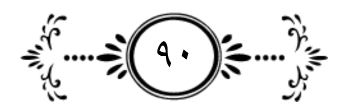




التوحيد الحقّ لأنَّه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلا ينحرف عن دين التوحيد الحقِّ إلَّا من تلوَّثت فطرته، ولا ينكر وجود الله ويجحد رسالاته إلَّا من طمس فطرته الإنسانيَّة وانحدر عن رتبته الوجوديَّة التي جعله الله فيها كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1].

ومن مضحكات تهافت الملاحدة في هذا المجال أنَّهم يمجدون الإنسانيَّة ويزعمون أن لا مقدَّس عندهم سوى الإنسان ويغضبون من وصف القرآن لهم بالبهائم، في حين أنَّهم بحسب مبادئ الإلحاد ليس الإنسان عندهم سوى نفاية كونيَّة وخلطة بايوكميائية متطورة عن سلف حيواني! الإنسان ربما يغفل عن ذاته أو يدنس أو تتدنس فطرته فينسى ربَّه ويضل، لذلك كان من لطف الله تعالى بعباده وحبِّه لهم أنْ يصطفي منهم خيرهم ليذكرهم بعهد الفطرة ويهديهم

(١): سورة الأعراف: الآية: ١٧٩.

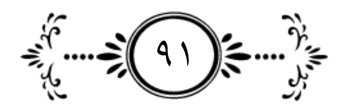




سبيل الرشاد، وأولئك المصطفون الأخيار هم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(٢)، ولقد أحسن أمير المؤمنين وخليفة الرسول الأمين بالحقِّ وترجمان القرآن الإمام عليٌّ عليه السَّلام في إبراز هذا المعاني القرآنيَّة السامية، ففي أَوَّل خطبة من نهج البلاغة بعد أنْ حمد الله تعالى وذكر ابتداء خلق السماوات والأرض وخلق النبيِّ آدم عليه السَّلام قال: «**واصطفى سبحانه من ولده " النبيَّ آدم " أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا**

(١): سورة الجمعة، الآيات: ٢ ـ ٤.

(٢): سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.





حقَّه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة...»[1].

فأصل الدين هو اقتضاء الفطرة البشريَّة، هذه هي العقيدة القرآنيَّة التي يتفق عليها جميع المؤمنين من الأديان كافة، وإن اختلفوا في المسمَّيات وتفرقوا في الصفات وضل كثير منهم في التفريعات، بل يقرها أيضاً بعض الملاحدة، هذه العقيدة يثبتها وجدان الإنسان وتراها ساطعة عند الأطفال، كما يثبتها الكثير من علماء الاجتماع وعلماء الإنثربولوجيا وعلماء الميثولوجيا وعلماء النفس وعلماء تاريخ الأديان - بعضهم من الملاحدة - عند الشعوب التي وصفوها بالبدائيَّة واعتبروها تمثل طفولة الجنس البشري.

---

(١): نهج البلاغة، الخطبة الأُولى، ج١.



أَوَّل من نبَّه إلى (التوحيد البدائي) هو الباحث الاسكتلندي أندرو لانج (توفي ١٩١٢م) اعتماداً على تقارير إنثروبولوجية أثبتت أنَّ العديد من القبائل البدائيَّة تؤمن بالله العظيم الخالق، وغالبًا ما يكون مشرعاً للنظام الأخلاقيِّ عندهم، فكان هذا الاكتشاف يمثِّل صدمة مناقضة لكلِّ الفرضيَّات الإلحاديَّة في أصل الدين في عصره، وللمخطط التطوري في دراسة الدين الذي يبدأ بالإلحاد، الكاثوليكي والاثنيولوجي فيلهلم شميت (توفي ١٩٥٤م) اعتمد الخبرة الإنثروبولوجية والمنهج التاريخيَّ في سلسلة كبيرة من التحقيقات الميدانيَّة أجراها على مختلف القبائل البدائيَّة في شتى العالم وجمع تلك التحقيقات مع الشواهد والنتائج في كتابه (أصل فكرة الله) الذي ظهر في ١٢ مجلداً من عام ١٩١٢م، وأكدت تلك التحقيقات على إيمان القبائل البدائيَّة بوجود إله واحد هو الإله السامي وإله السماء، رفائيل بتتازوني عالم



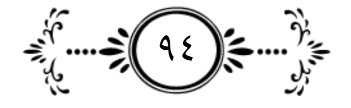


الإنثربولوجيا الإيطالي (توفي ١٩٥٩م)، أكد وجود الإله السامي عند القبائل البدائيَّة وشدد فقط على أنَّ إله السماء له الأَولويَّة عندهم ولكنَّه ليس واحداً(١).

اعتبر الباحث الإنثربولوجي (فوي) أنَّ قبائل جنوب شرق أستراليا تمثل أقدم طور للحياة البشريَّة، وأكد أنَّه وجد عندهم عقيدة الإله الأسمى يعرفونه كأب وأنَّه خالق الإنسان والظواهر الطبيعيَّة الكبرى، وهاجم الباحث انكرمان الفرضيَّات التطوريَّة نافياً نفياً قاطعاً فكرة كون عقيدة الإله الأسمى هي نهاية تطور الأديان مؤكداً وجود هذه العقيدة عند الشعوب البدائيَّة، وذهب الباحث الرائد في علم الأساطير الألماني شلنج في كتابه (فلسفة الميثولوجيا) إلى أنَّ عقيدة التوحيد كانت تسود الإنسانيَّة الأُولى ولكنَّها لم تتحقق بشكل كامل فانحرفت نحو التعدد والشرك

---

(١): راجع: الموسوعة البريطانية، مادة (دراسة الدين).





وهامت في بحار من الأساطير عن الآلهة وتعددهم، وأكد الباحث شرودر الأُستاذ بجامعة فينا على وجود عقيدة الإله الأسمى عند الهنود الآريين في بحث مهم بعنوان (العقيدة الآرية عن الخالق الأسمى) ألقاه في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ الأديان العام سنة ١٩٠٤م. ونشر الدكتور كروبر أبحاثاً متعددة عن هنود كاليفورنيا، أثبت فيها أنَّ تلك القبائل هي أقدم القبائل في أمريكا الشماليَّة، وجزم أنَّ هؤلاء الهنود عرفوا عقيدة الخلق بواسطة الإله السامي، ودافع كذلك عالم النفس الألماني الدكتور اوسترج عن فكرة وجود عقيدة الإله الأسمى عند البدائيين وكتب كتاباً في سايكولوجيَّة الدين، وقال: إنَّ الإله الأسمى يتميز عند المتوحشين بسموه الأخلاقي إلى جنب قدرته على الخلق، بينما هاجم عالم الأجناس الأمريكي سوانتون الفرضيَّات التطوريَّة في أصل الدين وخلص إلى أنَّه لا فارق بين توحيد البدائيين وتوحيد المعاصرين، فقد آمن



البدائيون تماماً بوجود قوَّة عليا سامية، كما هاجم فوكارت الطوطميَّة هجوماً عنيفاً ووصل في بحوثه إلى أنَّ عقيدة إله السماء الأعلى تمتد إلى أقدم العصور البشريَّة[1].

هذه كانت مجرد نبذة مختصرة لآراء بعض علماء الغرب في تخصصات علوم الاجتماع والنفس والإنسان والأجناس والأُسطورة وعلم الأديان المقارن وهي العلوم التي استغلَّها زعماء الإلحاد لتبرير إلحادهم، هذه العلوم نفسها تثبت أصالة الدين ورسوخه في تخوم الوجود البشري وتثبت كون الإيمان بالله الواحد الأحد هو مقتضى الفطرة البشريَّة، ولكنْ كما قلنا فإنَّ الفطرة قد تتلوَّث وأنَّ الإنسان ربما غفل فضلَّ، ممَّا أدَّى إلى انحراف البشر عن الدين الأصيل، قال الإمام الصادق عليه السَّلام: «**ما من مولود يولد إلَّا على الفطرة فأبواه اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»[2]،

(١): راجع: نشأة الدين، ص١٧٨-٢٣٨.

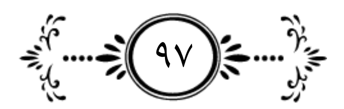
(٢): من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، رقم الحديث ١٦٦٨، ج٢ ص٤٩.





في إشارة إلى دور التربية والبيئة الاجتماعيَّة الفاسدة في انحراف الإنسان، ممَّا اقتضى بعث الله الأنبياء والمرسلين لهداية البشر وإعادتهم إلى الصراط المستقيم ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1].

(١): سورة البقرة، من الآية: ٢١٣.



الخلاصة

١- الفطرة تعني أصل الخلقة، وفطرة الإيمان تعني اقتضاء خلقة الإنسان للإيمان بالله تعالى، فكما أنَّ المصباح مصمم تصميماً يقتضي أنْ يضيء فيهدي في ظلمات الأجسام فكذلك خلقة الإنسان مصممة بحيث تهدي في ظلمات الأرواح، وكما أنَّ المصباح المتسخ لا يكفي للهداية ممَّا يستدعي وجود المرشد، فكذلك فطرة الإنسان الملوَّثة لا تكفي للهداية ممَّا يستدعي وجود الأنبياء والمرسلين.

٢- عقيدة اقتضاء الفطرة البشريَّة للإيمان هي عقيدة القرآن الكريم ويتفق عليها جميع المؤمنين من الأديان كافة، بينما تفرَّق الملاحدة،

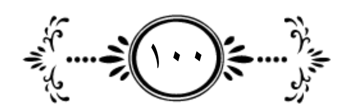




فبعضهم وافق المؤمنين باقتضاء الفطرة للإيمان وضلَّ في التفاصيل مثل كارن ارمسترونج، وبعضهم خالف المؤمنين ووضع الفرضيات ليبرر لإلحاده، هذا الأمر يعكس تشرذم الملاحدة وحيرتهم.

٣- إنَّ عقيدة اقتضاء الفطرة البشريَّة للإيمان يثبتها وعي الإنسان لذاته، وتصرِّح بها فطرة الأطفال، وتؤكدها العلوم التي سخرها الملاحدة لخدمة إلحادهم، بينما تجد فرضيَّات الملاحدة مجرد تخيلات متهافتة ينقض بعضها بعضاً، فالدين والتدين ليس وليد الأحلام أو أرواح الموتى أو الجهل أو الفقر والثروة أو تقديس الطبيعة أو الأسطورة أو عبادة المجتمع أو الصراع الجنسي، إنَّما الدين والتديُّن هو اقتضاء الفطرة البشريَّة.

لقد أحسن أحد الباحثين بعد عرض ومناقشة فرضيات الملاحدة غير العقلانيَّة حيث قال: (ما هذا المرض الذي يحدو بالإنسان إلى أمثال ما سبق من التحليل والتفسير؟ إنَّ أمرهم يشبه

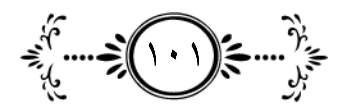




أن نرى رجلاً في قاعة مفتحة الأبواب فنقول: إنَّه نزل من السقف! ما الذي يدعونا لهذا القول بوجود أبواب مفتوحة؟ لو كانت مغلقة لتساءلنا: من أين أتى؟ ولكنْ في حالة الأبواب مفتوحة فإنَّه يكون مرضاً لو قلنا: إنَّه ثقب السقف وهبط منه!)[1]، فالإلحاد حالة مرضيَّة فعلاً، والخدعة أنَّ هذه السموم تقدَّم على أنَّها علوم بعد تغليفها بالمصطلحات والألقاب الأكاديميَّة، فيطَّلع عليها بعض البسطاء من هواة التقليد الأعمى وممَّن يعانون مشاكل في حياتهم، فتؤدي إلى تلويث الفطرة السليمة والضلال، ولكنَّ الله تعالى يهدي برحمته من شاء أنْ يهتدي إلى الحقِّ من عباده، فالحمد لله على ما هدانا من الحقِّ بإذنه وصلَّى الله وسلَّم على الهادي الأمجد المصطفى محمَّد وعلى آل بيته هداة الورى من بعده وعلى هادي الأُمم الإمام المنتظر عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره.

---

(١): الفطرة، الشيخ مرتضى المطهري، ص١٥٢.



المصادر

١ - القرآن الكريم

٢ - أُصول العائلة والملكيَّة الخاصة والدولة، فردريك إنجلز.

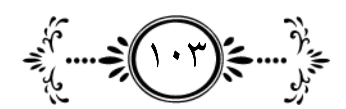
٣- أُصول الفلسفة الماركسيَّة، جورج بولتيزر.

٤ - الأشكال الأَوليَّة للحياة الدينيَّة، إميل دوكايم.

٥ - الطوطم والتابو، سيجموند فرويد.

٦ - الغصن الذهبي، جيمس فريزر.

٧- الفطرة، الشيخ مرتضى المطهري.





٨- الله والإنسان، كارن آرمسترونج.

٩- الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين.

١٠- الموسوعة البريطانية.

١١- الموسوعة الفلسفية المختصرة، جوناثان ري.

١٢- بيان الحزب الشيوعي، كارل ماركس وفردريك إنجلز.

١٣- تاريخ الأُسطورة، كارن آرمسترونج.

١٤- حياتي والتحليل النفسي، سيجموند فرويد.

١٥- دروس في الفلسفة الوضعيَّة، أوغست كونت.

١٦- علم الأديان، خزعل الماجدي.

١٧- قاموس أكسفورد الطبي.

١٨- قاموس أكسفورد للعلوم الاجتماعية.



١٩- لسان العرب، ابن منظور.

٢٠- لماذا لست مسيحياً، برتراند رسل.

٢١- مدارس علم النفس، حسين الغامدي.

٢٢- معجم ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني.

٢٣- معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي.

٢٤- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق.

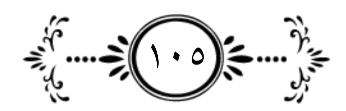
٢٥- موسوعة الدين والطبيعة، براون تايلور.

٢٦- نشأة الدين، علي سامي النشار.

٢٧- نقد فلسفة الحقّ عند هيجل، كارل ماركس.

٢٨- نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي،شرح الشيخ محمد عبده

٢٩- وسائل الشيعة، الحر العاملي.



المحتويات



